الدلالات البلاغية لأسلوب التجاذب في السياق القرآني

الدكتور رمضان محمد عبدالغفار البدوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد– بجامعة الأزهر الشريف

المقـــدمـــة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله وجماله ، وصلاة وسلاما على النبي الخاتم المعلم وعلى آله وأصحابه الأبرار وأزواجه أمهات المؤمنين .

وبعد ....

فأحسبني واحداً ممن يطيب له أن يتأمل القرآن ، ويتدبر مفرداته وتراكيبه ليفهم شيئا من أسرار بلاغته التي لا تنتهي إلى حد ، ولا يتوقف لها مد ، غير أن الصوارف تشغلنا عن ذلك كثيرا ، ومنذ سنوات عدة استوقفني في القرآن نمط عجيب فريد ، وكنت كلما راجعت وقفت متأملاً ومحاولاً التماس نظائر له تعطي صورة واضحة عن هذا النمط ، ثم تصرفني عن ذلك قلة بضاعتي وضئيل علمي ، فما هي إلا تأملات لا تنهض بالكشف عن باب من البحث في بلاغة كتاب الله العزيز ، ثم أعود فأقف وأراجع كتب البلاغة علني أجد إشارة إلى هذا النمط ثم أعود بخفي حنين ، فيقعدني عدم وجود المصطلح البلاغي عن البحث في سر بلاغته ماأتأمله.

ذلك النمط الفريد هو عطاء كلمة دلالتين مختلفتين ، إحداهما مع ما قبلها والثانية مع ما بعدها، انطلاقاً من فن الوقف والابتداء في الذكر الحكيم من جهة ، والتوجيه الإعرابي من جهة أخرى ، حيث تقف على رأس الكلمة أو العبارة فتعطي معنى يحدده السياق مع ما قبلها . ثم تبدأ بها فتصلها بما بعدها فتعطى معنى آخر في سياق ما بعدها . وكنت أقف حائرا مع الكلمة يتجاذبها ما قبلها وما بعدها أسائل نفسي : أهي مع السابق ، أم مع اللاحق ، أم معهما؟! لاسيما أن سياق العبارة ونظمها يحتمل ذلك ، فأقف عاجزا لاأجد تفسيرا لثنائية العطاء وازد واجبة الدلالة .

وبينما أنا على ذلك قادني بحث أعددته في سورة (يس) تحت عنوان : (أثر السياق في بيان قضية البعث والجزاء في سورة يس) . قادني هذا البحث . إلى هذا الخبئ الذي طالما فتشت عنه ، ذلك عندما كنت أتأمل تفسير قوله تعالى : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) [1] في حاشية العلامة الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ، فوجدته . رحمه الله . يتكلم عن هذا النمط في هذه الآية الكريمة ، موضحاً أن اسم الإشارة (هذا) يعطي مع قبله ومع ما بعده ، وإذا به يذكر هذا المصطلح

البلاغي ، ويكشف لي لأول مرة عن هذا الخبئ ، ذلك في تعليقه على ماذكره العلامة البيضاوي في قوله تعالى : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) موضحا ذلك دون أن يشير إلى المصطلح قال: (مبتدأ وخبر، (ما) مصدرية ، أو موصولة محذوفة الراجع ، أو (هذا) صفة لـ(مرقدنا) و (ما وعد) خبر مبتدؤه محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق)

هذا كلام البيضاوي وقد ذكر في كلمة (هذا) وجهين :

أنها مبتدأ وعليه يتصل معناها بما بعدها . أو أنها صفة لـ(مرقدنا) وعليه يرتبط معناها بما قبلها ، وهذا معنى التجاذب لكنه لم يشر إلى المصطلح لا من قريب ولا من بعيد .

ـ أما تعليق العلامة الشهاب على كلام البيضاوي ، والذي ذكر فيه المصطلح (التجاذب) فهذا نصه : (وفيه من البديع صفة تسمى (التجاذب) وهو : أن تكون كلمة من السابق أو اللاحق ، كما في شرح المفتاح للسيد ، ولم أجد له مثالاً غير هذا) [٢] هذا كلامه ، وسنقف معه في موضعه من الدراسة إن شاء الله أما قوله : (كما في شرح المفتاح للسيد فهو كتاب لم أعثر عليه ولم أعرف له وجودا في حقلنا العلمي .

وأما السيد فـ(هو عبد الله العجمي السيد جمال الدين النقردكار) ، صائغ الفضة ، له تصانيف مشهورة بين أيدي الناس منها : شرح الشافية في الصرف ألفه للأمير الجاني، وشرح التلخيص ، وهو شرح ممزوج بالمتن ألفه للأمير متكلى ، توفي سنة (٨٠٠هـ) ثمانمائة هجرية). [٣]

وأما قول الشهاب : (ولم أر له مثالاً غير هذا) فقول من لم يتتبع لأن غيره في القرآن كثير تشهد به هذه الدراسة ، وهذا ما استدركه عليه العلامة الألوسي في حديثه عن الآية نفسها من سورة (يس) فقد ذكر بعض شواهده ، قال ـ رحمه الله ـ : (جملة من مبتدأ وخبر .... وجوز الزجاج كون (هذا) صفة لـ(مرقدنا) لتأويله بمشتق فيصح الوقف عليه ، وقد روى عن حفص أنه وقف عليه وسكت سكتة خفيفة ، فحكاية إجماع القراء على الوقف على (مرقدنا) غير تامة ، و(ما) مبتدأ محذوف الخبر ، أى : حق ، أو خبر مبتدؤه محذوف، أى هو أو هذا ما وعد ، وفيه من البديع صنعة (التجاذب) وهو : أن تكون كلمة محتملة أن تكون من السابق ، وأن تكون من اللاحق، ومثله كما قال الشيخ الأكبر

ـ قدس الله سره ـ في تفسيره المسمى بإيجاز البيان في الترجمة عن القرآن [٤]، ومن خطه الشريف نقلت : : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه)[٥] بعد قوله تعالى: (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) [٦]وقوله تعالى: (فيه هدى) بعد (لا ريب) [٧] فليحفظ) [٨]

هكذا ذكر العلامة الألوسي أمثلة أخرى للتجاذب ، وذكر أنه نقل ذلك عن الشيخ الأكبر وهو العلامة النيسابوري ، وقد تتبعت كتابه هذا فلم أعثر على هذا النص . عندئذ وجدت بغيتي ، وعثرت على ضالتي التي طالما سألت عنها من غدا ومن راح ، وطفقت أتتبع ذلك في الذكر الحكيم فوجدت نماذج كثيرة لهذا الفن البلاغي الرائع .

وقد لاحظت أن النظر في الدلالة البلاغية لأسلوب التجاذب ينبني على النظر في أمرين:

الأول التوجيه الإعرابي ، حيث إن اختلاف المعنى يتفرع عنه اختلاف الإعراب ، لذلك قالوا : الإعراب فرع المعنى .

الثاني : في الوقف والابتداء ، فعلى الوقف يعطي السياق دلالة ، وعلى الابتداء ، أو الوصل تتغير تلك الدلالة ، دلالتا التجاذب منبثقتان عن تغاير الوقف .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن باب الوقف باب واسع جليل لم يسبر أحد غوره في القرآن الكريم ، إذ النظر فيه ليس محصورا في أنواع معدودة محدودة ، لأن القول فيه يتعلق بالسياق، والنظر في السياق القرآني لا ينتهي جديدة ولا يتوقف مديده .

يقول العلامة الجزرى ـ رحمه الله ـ (ولذلك حض الأئمة على تعلمه ومعرفته ، يقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: (الترتيل معرفة الوقوف ، وتجويد الحروف) ويقول عمر ـ رضى الله عنه ـ : (قد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتتنزل السورة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيتعلم حلالها وحرامها ، وأمرها وزجرها ، وما ينبغي أن يوقف عنده منها) ففي كلام على – رضى الله عنه – دليل على وجوب تعلمه ومعرفته ، وفي كلام عمر برهان على أن تعلمه إجماع من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ .... ومن ثم اشترط كثير من أئمة الخلف على المجيز ألا يجيز أحداً إلا بعد معرفته الوقف والابتداء) [٩]وقد فصّل العلامة الجزري القول في أنواعه ، وارتباط ذلك بالمعنى ، وما يجوز

منه وما لا يجوز ، وصلة ذلك بالإعراب واختلاف المعنى باختلافه . ومن إشاراته إلى هذا النوع من الوقف الذي هو موضع دراستنا – وسماه المراقبة في الوقف – قوله وقد ذكر تنبيهات: (قد يجيزون الوقف على حرف ، ويجيز آخرون الوقف على آخر ، ويكون بين الوقفين مراقبة على التضاد ، فإذا وقف على أحدهما امتنع على الآخر ، كمن أجاز الوقف على (لا ريب) فإنه لا يجيزه على (في) والذي يجيزه على (في) لا يجيزه على (لا ريب) ..... وكذا الوقف على (وما يعلم تأويله إلا الله) بينه وبين (والراسخون في العلم)[١٠] مراقبة، وكالوقف على (من النادمين) يراقب من أجل ذلك)[١١]

هذا كلام العلامة الجزري وقد وضح الوقف الذي ينبنى عليه التجاذب ، وقد فصل مثله ونقل عنه العلامة السيوطي رحمه الله)[١٢]

وبعد أن وضح لي ذلك شرعت في هذه الدراسة ، ولما كان محط النظر في بيان هذا الفن هو النظم المحكم الذي جاء فيه إذ هو الدال عليه والهادي إليه ، جعلت هذه الدراسة تحت عنوان (الدلالات البلاغية لأسلوب التجاذب في السياق القرآني)

ورحت أتأمل سياق العبارة التي أتى فيها التجاذب ، كاشفاً من خلال ذلك عن دلالة التجاذب وبلاغته ، مستأنسا بكلام العلماء متفقا ومختلفاً .

– وقد بدأت هذه الدراسة بمقدمة أوضحت فيها أهمية الموضوع والداعي إلى دراسته، وخطة السير فيه .

– ودرست بعد المقدمة ستة مواضع للتجاذب ، جعلت كل موضع منها مبحثاً ، وجعلت كلمة ، .أو عبارة التجاذب عنوانا لكل مبحث من المباحث الستة .

– ثم أنهيت الدراسة بخاتمة أبنت فيها عن أهم النتائج التي تمخضت عنها ، وما تهدي إليه تلك النتائج . وأتبعت الخاتمة بفهرسين الأول للمصادر والمراجع. والثاني : للموضوعات .

هذا ...والله أسأل أن يجعل هذا العمل قربي إليه ، وخدمة لكتابه ، وعلماً ينتفع به ليكون لنا مدداً في عالم الغيب بعد انقطاع المدد من عالم الشهادة .آمين.

المبحث الأول :التجاذب في (هذا)

قال تعالى : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) يس: ٥١-٥٣.

في معرض الحديث عن البعث الذي هو محور سورة(يس) يأتي هذا الموضع الذي يعرض نفخة البعث من القبور التي على إثرها يخرج الناس من الأجداث إلى ربهم يسرعون فى فزع وحيرة ، وهذا الحدث لم يكن منتظراً عند منكري البعث الذين كانوا يقولون إنكاراً وتكذيبا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟! لذلك صاحوا بالويل والهلاك لما بغتوا بهذه الحقيقة قائلين : (يا ويلنا من بعثنا مر مرقدنا) وتأتي الإجابة بأن هذا هو وعد الله الذي لا يتخلف وذلك أمر هيّن على الله تعالى فأمر بعثهم ليس إلا صيحة يصيحها إسرافيل إذ ينفخ في الصور (فإذا هم جميع لدينا محضرون) .

أما موضع التجاذب ففي قوله تعالى : (من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن)

كلمة (هذا)(تجاذبها ما قبلها وما بعدها . بالوقف عليها ، والبدء بـ(ما وعد) أو بالبدء بها (هذا ما وعدالرحمن) فبالوقف عليها (من مرقدناهذا) يكون اسم الإشارة صفة للمرقد ، فالمشار إليه هو (مرقدنا) ثم يكون (ما وعد) استئناف ، والخبر محذوف أى ما وعد الرحمن حق أو صدق . وبهذا تكون كلمة (هذا) قد أدت معنى مع السابق عليها . وبالبدء بها (هذا ما وعد الرحمن) تكون الإشارة إلى وعد الرحمن ، أى (هذا) مبتد ، و (ما وعد الرحمن) خبر ، وعليه تكون كلمة (هذا) قد أدت معنى مع اللاحق لها .

والأن نستنزل العلماء في ميدانهم ، لا لننازلهم وإنما لننزل على كلامهم ونحاورهم فيما التبس علينا فهمه .

ونبدأ بالعلامتين الجليلين : شهاب الدين الخفاجي ، والألوسي . رحمة الله عليهما . وذلك أنهما فارسا ميدان هذا المصطلح البلاغي فقد حبَّرت في المقدمة أنهما اللذان ذكرا هذا المصطلح (التجاذب) ونقلت من كلامهما ما يؤيد ذلك ، وذكرت أنني سأقف مع ما ذكراه في موضعه ، وهذا موضعه ، والتوفيق والسداد من الله جلا علاه .

العلامة الشهاب ومصطلح التجاذب .

أما العلامة الشهاب ، فإن الوفاء لأهل الفضل يقتضي أن نذكر الأصل الذي حداه إلى ما قال ، أعني أن كلامه كان تعليقا على كلام العلامة البيضاوي، والعلامة البيضاوي إن كان لم يذكر المصطلح فإنه ذكر التجاذب في العبارة الكريمة .

وقد ذكرت بعضا من كلامهما في المقدمة كما أشرت ولكنني أذكر كلامهما هنا كاملا ليتضح في سياقه ولنستبين دلالة التجاذب في العبارة المباركة . يقوله العلامة البيضاوي . رحمه الله . بعد قوله تعالى : (من بعثنا من مرقدنا) : (وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما .... (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) مبتدأ وخبر و(ما) مصدرية أو موصولة محذوفة الراجع ، أو(هذا) صفة لمرقدناو(ما وعد) خبر مبتدؤه محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أى ما وعد الرحمن ، وصدق المرسلون حق ، وهو من كلامهم وقيل : جواب الملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم معدول عن سننه تذكيرا لكفرهم ، وتقريعا لهم عليه ، وتنبيها أن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنهم قالوا : بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث ، وأرسل الرسل فصدقوكم ، وليس الأمر كما تظنون فإنه ليس بعث النائم فيهمكم السؤال عن الباعث ، وإنما هو البعث الأكبر ذو الأهوال[١٣]

هذا كلام العلامة البيضاوي . رحمه الله . وقد ذكر أن القوم سألوا سؤال من يهذي وقد اختلط عقله حيث ظنوا عند البعث أنهم كانوا نياماً وليسوا موتى . والسؤال يوحي بهذه الدهشة ويحكى ذلك الفزع (من بعثنا)؟ فهو استفهام إنكاري تعجبي .

ثم يذكر العلامة البيضاوي في سياق ذلك التجاذب في كلمة (هذا) فيقول : (هذا ما وعد ...) مبتدأ وخبر) وهذا يعني أن (هذا) مرتبطة بما بعدها على البدء بها والوقوف على (مرقدنا)

ثم ذكر الوجه الثاني للتجاذب فقال: (أو هذا صفة لمرقدنا) وهذا يعني أن (هذا) تعطى دلالة مع ما قبلها وأن الإشارة إلى المرقد ، لا إلى ما وعد الرحمن ... ويكون الوقف عليها، والبدء بـ(ما وعد الرحمن) على أنه مبتدأ حذف خبره ، أو خبر حذف مبتدؤه .

وتكون العبارة إما من كلامهم ، وإما جواب الملائكة عليهم ، وقد أشار إلى أن جواب الملائكة جاء على عكس الظاهر ، فقد سألوا عن الباعث ، وأجيبوا عن البعث تقريعاً لهم ولفتا إلى أن ما يهمهم وما ينبغي أن يسألوا عنه هو البعث الذي طال إنكارهم له ، وليس الباعث !! .

– أما تعليق العلامة الشهاب على هذا الكلام والذي ذكر فيه المصطلح ، فهذا نصه: (وقوله : محذوفة الراجع ، أى العائد ، وتقديره وعده وصدقه أو فيه ، وعلى المصدرية المصدر فيه بمعنى المفعول . قوله : (أو هذه صفة لمرقدنا) لتأويله بمشتق فيصح الوقف عليه، وقد روى عن حفص أنه وقف عليه ، وسكت سكتة خفيفة ، كما وقع في بعض النسخ ، فمن قال إن الوقف على (مرقدنا) عند الكل لئلا يتوهم أن هذا صفة لمرقدنا فقد أخطأ .... وقوله خبر محذوف تقديره هو أو هذا ، وفيه من البديع صفة تسمى :

(التجاذب) وهو أن تكون كلمة تحتمل أن تكون من السابق أو اللاحق كما في شرح المفتاح للسيد ، ولم أر له مثالا غير هذا. وقوله من كلامهم ، أى الكفرة على أنهم أجابوا أنفسهم ، أو أجاب بعضهم بعضا. قوله : (معدول إلخ) لأنهم سألوا عن الفاعل فحقهم أن يجابوا به فعدل عنه لما ذكر فهو من الأسلوب الحكيم) [١٤]

هقد رأينا العلامة الشهاب يذكر التجاذب في هذا الموضع مبيناً الوقوف على (مرقدنا) والبدء بـ(هذا) أو الوقوف على (هذا) على أنه صفة لمرقدنا فالكلمة تعطى مع السابق واللاحق فهي كسلاح ذي حدين لا ندري أيهما أقطع .

ونلاحظ أن هذه الكلمة التي جرى فيها التجاذب كأنها واسطة عقد هذا التعبير المحكم، أعني أن دلالتهما في هذا السياق دلالة كاشفة عن حال هؤلاء المنكرين للبعث ، فإن جعلناها مع ما قبلها ، فهي إشارة إلى المرقد الذي ظنوا أنهم فيه نيام ولن يقوموا منه .

وإن جعلناها مع ما بعدها فهي إشارة إلى وعد الله وصدْق المرسلين بان البعث حق ، فهي على الحالين مرتبطة ببيان موقف القوم من أمر البعث ودلالة الإشارة لا تنفك عما أصاب القوم من فزع وهلع حين البعث .

ذلك واضح في الدعاء بالويل والثبور (يا ويلنا من بعثنا) إنها الدهشة التي دفعت إلى هذا السؤال الحائر ، ويوضح العلامة الشهاب كلام البيضاوي أن الإجابة جاءت على خلاف مقتضى السؤال ، فقد سألوا عن الفاعل ، وأجيبوا عن الفعل ، وهذا تقريع وتوبيخ لهم ، لأنهم ينبغي أن يسألوا عن الفعل وهو البعث الذي طالما أنكروه وجحدوه.

ومما ذكره الشهاب في بيان التجاذب في هذا الموضع أن حفص وقف على (مرقدنا) وسكت سكتة خفيفة وهذه السكتة الخفيفة أو اللطيفة [١٥]كما يسميها علماء التجويد تقدر بمقدار حركتين.

وأرى أن هناك علاقة بين دلالة التجاذب وهذه السكتة من جهتين : الأولى أن في السكتة دليلاً على التجاذب وأن المعنى تم عند (مرقدنا) ، و (هذا) مستأنفة مع ما بعدها.

يقول العلامة السمين – رحمه الله – :(وقد تقدم لك أول الكهف أن حفصا يقف على (مرقدنا) وقفة لطيفة دون قطع نفس لئلا يتوهم أن اسم الإشارة تابع لـ(مرقدنا[١٦]. وسيأتي كلام العلامة السمين كاملا في هذا الموضع.

الثانية : أن هذه السكتة تحكى حال القوم وما أصابهم من فزع عند قيامهم ظانين أنهم كانوا نياما ، ولم يحسبوا للبعث والعرض والجزاء حساباً، فهذه السكتة تحكى تهدج الصوت وتقطعه واضطراب اللسان وكأنهم كانوا يلتقطون أنفاسهم المتقطعة خوفاً وفزعاً فبدا ذلك على لسانهم ، ولنا أن نتخيل حالة من هب من نومه خائفا مروعاً كيف يتكلم ؟! الأهم هنا أن العلامة الشهاب ذكر ها المصطلح (التجاذب) وعده من البديع كما جاء في كلامه السابق .

. وإن كان لنا أن نعلق على كلام الشهاب نقول : إنه قال : (أن تكون كلمة ... فذكر بذلك أن التجاذب يجري في الكلمة ، وقد دلت الشواهد كما تشهد هذه الدراسة أن التجاذب يجري في كلمة وفي أكثر من كلمة) فكان عليه أن يقول أن تكون كلمة أو أكثر هذا أولا . وثانياً : قوله : (ولم أر له مثالاً غير هذا) بل أمثلته متعددة تشهد بها هذه الدراسة ، وهذا ما استدركه عليه العلامة الألوسي . رحمه الله . فقد ذكر بعض الشواهد على ما سنوضح بعد قليل .

ثالثاً : قوله (تحتمل أن تكون ...) بيان لعطاء التجاذب وفضيلته وازدواجية دلالته ، فالكلمة أو العبارة تحتمل وجهين وتعطى دلالتين مختلفتين دون تناقض أو تغاير .

هذا ما ذكره الفارس الأول ، وننتقل إلى الفارس الثاني في هذا الميدان ، وهو العلامة الألوسي.

الألوسي يذكر المصطلح ويستدرك على الشهاب

كان العلامة الألوسي – رحمه الله – أطول باعاً في بيان التجاذب وشرح دلالتيه في سياق العبارة الكريمة مبيناً ما يدعم ذلك من بلاغة التعبير التي اكتنفت أسلوب التجاذب شارحاً ومفصلاً ما لم يشرحه الشهاب ، مستدركاً عليه ما ذكره من أنه لم ير له مثالاً غير هذا المثال من سورة يس ، فذكر بعض الأمثلة ، بعد أن ذكر المصطلح كذلك ، وعرفه كما عرفه الشهاب ، وننتقل إلى كلامه . رحمه الله . فبعد قوله تعالى (هذا ما وعد الرحمن) قال : (جملة من مبتدأ وخبر ، (وصدق المرسلون) عطف على ما في حيز ما ، .... وما موصولة محذوفة العائد ، أى هذا الذي وعده الرحمن ، والذي صدقه المرسلون ، أى صدق

فيه ، من قولهم : صدقت زيدا الحديث أى صدقته فيه .... أو مصدرية أى هذا وعد الرحمن ، وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، وهو على ما قيل جواب من جهته ـ عز وجل ـ وعلى ما قال الفراء من قبل الملائكة ، وعلى ما قال قتادة ومجاهد : من قبل المؤمنين .

وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل لأنه الذي سألوا عنه ، بأن يقال : الرحمن ، أو الله بعثكم ، لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه ، مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل ، وذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم ، على أن المعنى لاتسألوا عن الباعث فإن هذا البعث ليس كبعث النائم ، وإن ذلك ليس ما يهمكم الآن ، وإنما الذي يهمكم أن تسألوا : ما هذا البعث ذو الأهوال والأفزاع ؟! وفيه من تقريعهم ما فيه.

وزعم الطيبي أن ذكر الفاعل ليس بكاف في الجواب لأن قولهم (من بعثنا من مرقدنا) حكاية عن قولهم ذلك عند البعث بعد ما سبق من قولهم : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فلابد في الجواب من قول مضمن معنيين ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث، وأنبأكم به الرسل ، لكن عدل إلى ما يشعر بتكذيبهم ليكون أهول ، وفي التقريع أدخل ، وهو وارد على الأسلوب الحكيم.

وفي دعوى عدم كفاية ذكر الفاعل في الجواب نظر . وفي إيثارهم اسم الرحمن قيل : إشارة إلى زيادة التقريع من حيث إن الوعد بالبعث من أثار الرحمة ، وهم لم يلقوا له بالاً ، ولم يلتفتوا إليه وكذبوا به ، ولم يستعدوا لما يقتضيه ، وقيل آثره المجيبون من المؤمنين لما أن الرحمة قد غمرتهم فهي نصب أعينهم ، واختصاص رحمة الرحمن بما يكون في الدنيا ، ورحمة الرحيم بما يكون في الأخرى ممنوع فقد ورد : يا رحمن الدنيا والآخرة ويا رحيمهما.

وقد زيد : هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين عليهم السلام ، وأجاب بعضهم بعضا وآثروا اسم الرحمن طمعاً في أن يرحمهم، وهيهات ليس لكافر نصيب يومئذ من رحمته عز وجل . وجوز الزجاج كون (هذا) صفة لمرقدنا لتأويله بمشتق فيصح الوقف عليه ، وقد روى عن حفص أنه وقف عليه وسكت سكتة خفيفة ، فحكاية إجماع القراء على الوقف على (مرقدنا) غير تامة .

وما مبتدأ محذوف الخبر ، أى حق ، أو خبر مبتدؤه محذوف ، أى هو أو هذا ما وعد.

وفيه من البديع صنعة (التجاذب) وهو أن تكون كلمة محتملة أن تكون من السابق ، وأن تكو من اللاحق ، ومثله كما قال الشيخ الأكبر قدس سره في تفسيره المسمى بإيجاز البيان في الترجمة عن القرآن ، ومن خطه الشريف نقلت : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه)[١٧] الآية .

بعد قوله : (ولئن ابتعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[١٨].

وقوله تعالى : (فيه هدى) بعد (لا ريب) [١٩] فليحفظ) [٢٠].

كل ما ذكره العلامة الألوسي – رحمة الله عليه – ، لم يخرج عن موطن التجاذب في تلكم العبارة القرآنية الكريمة لكنه أفاض وأجاد في بيان سؤالهم (من بعثنا من مرقدنا) ؟ وشرح كيف أنهم سألوا عن الباعث وكان مقتضى الظاهر أن يجابوا به ، ولكن أجيبوا بالبعث (هذا ما وعد الرحمن ....) تقريعاً وتوبيخاً ولفتا لهم إلى أن الذي كان ينبغي أن يسألوا عنه هو البعث لأنه ما يهمهم حيث إنهم أنكروه وماتوا على ذلك ، وبعثوا مدهوشين متعجبين منه .

كما وضح – رحمه الله – الجواب على السؤال ، مبيناً انه قد يكون من جهته عز وجل، أو جواب الملائكة عليهم ، أو جواب المؤمنين ، أو هو جوابهم على أنفسهم ، ثم ذكر لطيفة في التعبير باسم الله (الرحمن) هنا والمقام مقام غضب وعقاب ، فذكر ما يتعلق بفزعهم وخوفهم ، وأنهم ذكروا ذلك تعلقاً برحمته تعالى بعد أن ظهر عجزهم وبطلت حجتهم بعد بعثهم من قبورهم، وفي سياق بيانه لما في العبارة من بلاغة ذكر التجاذب فيها بإيضاح وتفصيل . وبين أن (هذا) يوقف عليها فتكون مع ما قبلها . ويبتدأ بها ويوقف على (مرقدنا) ، فتكون مع ما بعدها والدلالتان مختلفتان والإعراب يتغاير على الوجهين .

ثم هو يعرف التجاذب ، كما عرفه العلامة الشهاب الخفاجي غير أنه خالفه في كلمة كانت أدق من كلمة الشهاب ، وهي كلمة (صنعة) في قوله (وفيه من البديع صنعة التجاذب) وقال العلامة الشهاب (صفة) ولا ريب أن كلمة صنعة في هذا السياق البلاغي وهذا العطاء الدلالي أنسب وأدق وأقرب للبديع خاصة وللبلاغة عامة .

ثم استدرك على الشهاب بذكر مثالين غير هذا الموضع : جاءا سورة في البقرة ، وكان الشهاب ذكر أنه لم ير له غير هذا الموضع .

العلامة الزمخشري.

ذكر العلامة جار الله الزمخشري . رحمه الله . التجاذب في العبارة الكريمة ووضح دلالة (هذا) مع ما قبلها ، وما بعدها ، وقد ظهر في كلامه أيضا أن (هذا) إذا كانت مع ما قبلها بالوقف عليها ، فإنه من كلام منكري البعث لا محالة ، أما إذا كانت مع بعدها بالوقف على (مرقدنا) والبدء بها ، فإنه يحتمل أن تكون من كلامهم أو من كلام غيرهم كما سبق بيانه في كلام العلامة الألوسي .

وهذا كلام الزمخشري . رحمه الله . : (وقرئ : (من بعثنا) و(من هبنا) على من الجارة والمصدر ، و(هذا) مبتدأ و(ما وعد) خبره ، و(ما) مصدرية أو موصولة.

ويجوز أن يكون (هذا) صفة للمرقد ، و (ما وعد) خبر مبتدأ محذوف ، أى : هذا وعد الرحمن ، أو : مبتدأ محذوف الخبر ، أى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق .

وعن مجاهد : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا : (من بعثنا) وأما (هذا ما وعد الرحمن) فكلام الملائكة . عن ابن عباس وعن الحسن : كلام المتقين ، وقيل كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا .

فإن قلت : إذا جعلت (ما) مصدرية ، كان المعنى هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله : (وصدق المرسلون) إذا جعلتها موصولة؟ قلت :تقديره : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدق المرسلون ، بمعنى والذي صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال.... فإن قلت : (من بعثنا من مرقدنا) سؤال عن الباعث ، فكيف طابقه ذلك جوابا ؟ قلت: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل ، إلا أنه جئ به على طريقة سيئت بها قلوبهم ، ونعيت إليهم أحوالهم ، وذكروا كفرهم وتكذيبهم ، وأخبروا بوقوع ما أتذروا به، وكأنه قيل لهم : ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث التائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث ، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع، وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين) [٢١].

هكذا وضح العلامة الزمخشري ـ رحمه الله ـ التجاذب بجعل (هذا) الوقف والابتداء ، كما وضح دلالة (ما وعد الرحمن) وعلى الوجهين ، وبين احتمال أن تكون من كلامهم أو من كلام غيرهم

العلامة الرازي

كعادته يجعل كلامه تحت مسائل ، وفي حديثه عن التجاذب في هذا الموضع يقول :

(المسألة الرابعة : (هذا) إشارة إلى ماذا ؟ نقول : فيه وجهان ، أحدهما : أنه إشارة إلى المرقد ، كأنهم قالوا : (من بعثنا من مرقدنا هذا) فيكون صفة للمرقد ، يقال كلامي هذا صدق.

وثانيهما : (هذا) إشارة إلى البعث ، أى هذا البعث ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون.

المسألة الخامسة : إذا كان (هذا) صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى : (ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)؟ نقول : يكون ما وعد الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ، والمرسلون صدقوا ، أو يقال : ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة الإضمار ، أو يقال : ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من النوم ، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به .

المسألة السادسة : إن قلنا (هذا) إشارة إلى المرقد ، أو إلى البعث فجواب الاستفهام لقولهم : (من بعثنا) أين يكون ؟ نقول : لما كان غرضهم من قولهم : من بعثنا ، حصول

العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله : هذا بعث وعد الرحمن به ، ليس تنبيها ، كما أن الخائف إذا قال لغيره : ماذا تقول : أيقتلني فلان ؟ فله أن يقول : لا تخف ويسكت لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب) [٢٢].بهذا شرح العلامة الرازي ـ رحمه الله ـ التجاذب في (هذا) فذكر أن فيهما وجهين ، أنها إشارة إلى المرقد وتكون بذلك مع ما قبلها ويوقف عليها .

أو (هذا) إشارة إلى البعث ، وتكون بذلك مع ما بعدها ويبتدأ بها ، اسم الإشارة هنا يتجاذبه السابق واللاحق .

ثم حاول توجيه البدء بـ(ما وعد الرحمن ...) على الوجه القائل بالوقوف على (هذا) وجعلها صفة لمرقد . فقال متسائلا : (فكيف يصح ... ؟) ثم أجاب على سؤاله مبينا أن (ما وعد الرحمن ...) فيه وجهان :

إما أن يكون مبتدءاً حذف خبره ، أو خبر حذف مبتدؤه ، وفي المسألة السادسة يوضح أمراً آخر يتعلق بالتجاذب ، هو إذا كانت (هذا) إشارة إلى المرقد ، أو إلى البعث، فأين جواب من بعثنا ؟ وأجاب على ذلك بأن جواب سؤالهم حصل بقوله : هذا بعث وعد الرحمن به وليس تنبيها ، لأن غرضهم من السؤال حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه .

العلامة السمين

يوضح العلامة السمين وجهي التجاذب في (هذا) رابطاً ذلك بالوقف والابتداء موجها التوجيه النحوي الذي يسوّغ ذلك، قال ـ رحمه الله ـ : (قوله : (هذا ما وعد) في (هذا) وجهان ، أظهرهما : أنه مبتدأ وما بعده خبره ، ويكون الوقف تاما على قوله : (من مرقدنا) وهذه الجملة حينئذ فيها وجهان ، أحدهما : انها مستأنفة : إما من قوله تعالى ، أو من قول الملائكة .

والثاني : أنها من كلام الكفار فتكون في محل نصب بالقول . والثاني من الوجهين الأولين : (هذا) صفة لـ(مرقدنا) و(ما وعد) منقطع عما قبله .

ثم في (ما) وجهان ، أحدهما : أنها في محل رفع بالابتداء ، والخبر مقدر أى : الذي وعده الرحمن وصدق فيه المرسلون حق عليكم ، وإليه ذهب الزجاج والزمخشري .

والثاني : أنه خبر مبتدأ مضمر أى : هذا وعد الرحمن وقد تقدم لك أول الكهف : أن حفصاً يقف على (مرقدنا) وقفة لطيفة دون قطع نفس لئلا يتوهم أن اسم الإشارة تابع لـ(مرقدنا) وهذان الوجهان يقويان ذلك المعنى المذكور الذي تعمد الوقف لأجله. و(ما) يصح أن تكون موصولة اسمية أو حرفية كما تقدم تقريره ، ومفعولا الوعد والصدق محذوفان أى :وعدناه الرحمن وصدقناه المرسلون . والأصل: صدقنا فيه) [٢٣].

ما أجمل ما ذكره العلامة السمين هنا رابطاً سر الوقفة اللطيفة على (مرقدنا) بالتجاذب، فالسكتة هذه التي لا تنفس خلالها يقصد بها أن تكون (هذا) مع ما بعدها وليست مع ما قبلها وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً .

العلامة القرطبي

ذكر كذلك الوجهين المترتبين على تغاير الوقف والابتداء ، موجهاً كذلك التوجيه النحوي المسوغ لذلك . قال ـ رحمه الله ـ (وكان حفص يقف على (من مرقدنا) ثم يبتدئ فيقول : (هذا) قال أبو بكر بن الأنباري : (من بعثنا من مرقدنا) وقف حسن ، ثم تبتدئ (هذا ما وعد الرحمن) ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت لـ(مرقدنا) فيكون التمام(من مرقدنا هذا) . (ما وعد الرحمن) في موضع رفع من ثلاث جهات ، ذكر أبو إسحاق منها اثنين قال: يكون بإضمار هذا . والجهة الثانية : أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم . والجهة الثالثة : أن يكون بمعنى (ما وعد الرحمن) (إن كانت إلا صحبة واحدة ، يعني أن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة...) (٢٤)

اهتم العلامة القرطبي في بيانه لدلالة التجاذب في هذا الموضع بالأصل الذي تأتى منه تلك الدلالة وهو الوقف على (مرقدنا) والبدء بـ(هذا) على أنها مبتدأ وما بعدها خبر . أو الوقف على (هذا) والبدء بـ(ما وعد..) ذاكراً التوجيه لما ذكر كما هو واضح في كلامه .

ـ هذا ومن العلماء الذين ذكروا دلالتي التجاذب في هذا الموضع العلامة أبو السعود – رحمه الله– حيث أوجز ذلك في قوله : (هذا ما وعد الرحمن) جملة من مبتدأ وخبر ، و(ما) موصولة محذوفة العائد ، أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيراً لكفرهم ، وتقريعاً لهم عليه ، وتنبيها على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو ، دون الباعث ، كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم ذلك في كتبه وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه ، وليس الأمر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث ، وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا ، وقيل (هذا) صفة لـ(مرقدنا) و (ما وعد الخ) خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق) (٢٥)

هكذا ذكر العلامة أبو السعود ـ رحمه الله ـ وجهي التجاذب في (هذا) وأنها يوقف عليها، ويبتدأ بها ، كما ذكر أن الإجابة على سؤالهم (من بعثنا) جاءت معدولة عن سنن السؤال ، حيث سألوا عن الباعث ، وأجيبوا بالبعث تقريعاً لهم وتنبيهاً على أنهم ينبغي أن يسألوا عن البعث لا عن الباعث .

ـ وممن أوجز القول بالتجاذب في العبارة المباركة العلامة الزجاج ـ رحمه الله ـ قال : (وقوله: (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (هذا) رفع بالابتداء ، والخبر (ما وعد

الرحمن) وهذا قول المشركين ، أعنى هذا ما وعد الرحمن . ويجوز أن يكون (هذا) من نعت (مرقدنا) على معنى (من بعثنا) من مرقدنا هذا) الذي كنا راقدين فيه .

ويكون (ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) على ضربين: أحداهما على إضمار هذا . والثاني على إضمار حق ، فيكون المعنى حق ما وعد الرحمن . والقول الأول ، أعنى ابتداء (هذا) عليه التفسير ، وهو قول أهل اللغة) [٢٦].

هكذا ذكر العلامة الزجاج التجاذب في (هذا) ورجح القول الأول وهو الابتداء بـ(هذا) والوقف على (مرقدنا) .

. ومن العلماء الذين ذكروا التجاذب في هذا الموضع ، ونكتفي بالإحالة إليهما لأن فيما ذكر مندوحة عن ذكر كلامهم : العلامة الجمل[٢٧]، والعلامة ابن جزي[٢٨] . رحمهما الله .

المبحث الثاني: التجاذب في (فيه)

قال تعالى : (آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) البقرة : ١ ، ٢ .

هذا مطلع سورة البقرة والذي تصدر بالحروف المقطعة (ألم) التي هي سر من أسرار هذا الكتاب المعجز ، وقد وقفت معه في دراسة أخرى ولا مجال للوقوف معه هنا .

دلالة اسم الإشارة

أما الإشارة (ذلك) فمعلوم أنها للبعيد ، ولما كان الكتاب العزيز ليس بعيدا عنا في المكان إذ هو بين أيدينا ميسر للذكر والتلاوة ، كانت الإشارة إلى بعد المكانة وعلو الرتبة ورفعة المنزلة .

يقول العلامة البقاعي . رحمه الله . : (ولما كان معنى (ألم) هذا كتاب من جنس حروفكم التي فقتم في التكلم بها سائر الخلق ، فما عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله إلا لأنه كلام الله أنتج ذلك كماله ، فأشير إليه بأداة البعد ولام الكمال في قوله : (ذلك الكتاب) لعلو مقداره بجلالة أثاره وبعد رتبته عن نيل المطرودين) [٢٩].

وفي الجلالين : (والإشارة للتعظيم) ويعلق العلامة الجمل على ذلك بقوله : (وقوله : (الإشارة به) أى بذلك للتعظيم ، أى تعظيم المشار إليه لما فيه من لام البعد الدالة على بعد مرتبته وعلوها في الشرف) [٣٠].

. يقول الخطيب القزويني : (وربما جعل البعد ذريعة إلى التعظيم كقوله تعالى : (ذلك الكتاب) ذهابا إلى بعد درجته) [٣١]

وعليه يعلق أبو يعقوب المغربى بقوله : (أى ذلك الرفيع المنزلة في البلاغة ، العزيز المرتبة في علومه وأسلوبه ، هو الكتاب الكامل الذي يستحق أن يسمى كتابا)

. أما العلامة الشهاب الخفاجي . رحمه الله . فيرى في التعبير باسم الإشارة الدال على البعد هنا سراً آخر غير الدلالة على التعظيم وذلك أن الإشارة بـ(هذا) تكون لما عند

المتكلم ، والإشارة بـ(ذلك) تكون لما انفصل عن المتكلم أى عند المخاطب وغيره، فيقول المتكلم مشيرا لما عنده : هذا عندي ، ويقول لغيره : هذا عندك ، ولما كان المخاطب بذلك هو رسول الله ـ صلى الله عليه سولم ـ قال : (ذلك) أى الكتاب الذي عندك .

وهذا كلامه ـ رحمه الله ـ : (الإشارة في هذه الآية إلى ما حصل بحضرتنا وانفصل عن حضرة الربوبية بالتنزيل فصار مكتوباً مقروءا ، فالمعنى ذلك الكتاب الذي عندك يامحمد والمتكلم يقول: هذا لما عنده ، وذلك لما عند المخاطب أو غيره ، وقوله: (ألم) بحروف التهجي التي تقطّع بها الحروف وتكتب حرفاً حرفاً ، والكتابة والتلفظ إنما هو في حقنا ، وإذا لم تذكر هذه الحروف قيل: هذا كتاب أنزلناه ، لأنه عنده ـ سبحانه ـ علي ما هو عليه حقيقة ، وعندنا هو متلو مكتوب كما يليق به فاقتضته البلاغة والإعجاز فصلا بين المقامين وتفرقة بين الإشارتين) [٣٢]

موضع التجاذب

والكلام في دلالة اسم الإشارة لا ينفصل عما نريده من بيان دور أسلوب التجاذب هنا، فبعد قوله: (ذلك الكتاب) يأتي التعبير الذي هو موضع التجاذب ليضيف ثناء علي هذا الكتاب ويزيد من إيضاح منزلته ، إذ إن ذلك هو ما ينشغل به هذا السياق المحكم ، ذلك قوله: (لاريب فيه)

والتجاذب هنا في (فيه) بالوقف عليها والبدء بها ، فإذا وقفنا عليها وقلنا: (ذلك الكتاب لا ريب فيه) كانت لها دلالة وإذا بدأنا بها سواء وقفنا على (لاريب) : (ذلك الكتاب لا ريب) أو وقفنا على (فيه) وبدأنا بها (فيه هدى للمتقين) كانت لها دلالة أخرى غير الدلالة الأولى .

نعم الكلمة هي الكلمة لكنها ذات وجهين مختلفين وتعطي دلالتين متغايرتين دونما تعارض أو تأثير إذا استخدمت مع ما قبلها لتعطي معها دلالة أو مع ما بعدها لتتغاير دلالتها .

والذى أريد إيضاحه هنا هو ان الذي جرى عليه كلام جل علماء التفسير الوقف عليها لتدل مع ما قبلها ، دونما البدء بها لتدل مع ما بعدها غير أن بعض المدققين منهم لم يهمل البدء بها لتدل مع ما بعدها لاسيما أن من القراء من وقف على (ريب) وبدأ بها فقال (فيه هدى للمتقين)

العلامة الشهاب والبيضاوي

ممن شرح المعنى بالوقوف على(فيه) هكذا (ذلك الكتاب لا ريب فيه) العلامة الشهاب الخفاجي والعلامة البيضاوي ـ رحمة الله عليهما ـ فالشهاب يوضحً أن (لا ريب فيه) للعاقل المتدبر لإعجازه لا أن أحداً لا يرتاب فيه لأن المرتابين فيه كثر .

قال : (معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كونه وحيا بالغاً حد الإعجاز ، لا أن أحداً لا يرتاب فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) [٣٣]، فإنه لم ينف عنهم الريب) .

ويقول العلامة الشهاب أيضا بعد كلام مفصل في تعليقه على كلام البيضاوي : (إشارة إلى أنه ليس المنفي ههنا إلا كون القرآن محلا صالحا في نفسه لتعلق الريب به ، ومظنة له بل هو لوضوح الدلالة وسطوع البرهان على كونه حقا منزلا من عند الله بحيث لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه ، وهذا معنى صحيح لا يقدح في صدقه ارتياب جميع الناس فضلا عن ارتياب بعضهم).....(إن مراد المصنف أن وجود الريب وإن تحقق إلا أنه منزل منزلة العدم لأنه لايصدر عن عاقل تدبره ، ومايصدر عن غيره لاعبرة به فكأنه غير موجود رأسا فنفيه عنه نفي لكونه محلا له) [٣٤]

هكذا بين العلامة البيضاوي والعلامة الشهاب أن المعنى بالوقوف على (فيه) نفى أن يكون القرآن محلاً وموضعا للريب ، أي القرآن لا يوجد فيه ريب .

ثم يكون البدء بـ(هدى للمتقين) ويجعل البيضاوي (هدى) حالاً من الضمير المجرور (فيه) يقول: (وهدى حال من الضمير المجرور ، والعامل فيه الظرف الواقع صفة للمتقين) ويعلق الشهاب بقوله : (والمصدر وقع حالا مبالغة بجعله عين الهدف .... والمراد بالظرف لفظ (فيه) لأن الظرف يطلق على أسماء الظروف نحو عند وحيث وعلى الجار والمجرور لاسيما و(فى) الجار هنا ظرفية وفيه تسامح لأنه أراد بالظرف متعلقه وهو حاصل أو استقر) [٣٥]

نلاحظ هنا في كلام العلامة الشهاب أن التقدير لا ريب فيه أى لا ريب حاصل أو استقر في القرآن و(هدى) كما بين العالمان حال أى حال كون القرآن هدى للمتقين أما الوقف على (لا ريب) وبيان التوجيه الدلالي له عند هذين العالمين فسنوضحه بعد بيان المعنى بالوقوف على(فيه).

– وفي الجلالين أن (هدى) خبر ثان والخبر الأول (لا ريب فيه) والمبتدأ (ذلك)

قال : (وجملة النفي خبر مبتدؤه (ذلك) والإشارة به للتعظيم (هدى) خبر ثان هاد)[٣٦].

– كما يفسر العلامة الجمل المعنى على الوقوف على (فيه) لتعطى المعنى مع ما قبلها فيقول : (فإن قيل : قد وجد الريب من كثير من الناس في القرآن ، وقوله تعالى (لا ريب فيه) ينفي ذلك ، فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها ان المنفي كونه متعلق للريب ومحلا له، بمعنى أن معه من الأدلة ما لو تأمله المنصف المحق لم يرتب فيه ، ولا اعتبار بريب من وجد منه الريب ، لأنه لم ينظر حق النظر ، فريبه غير معتد به ، والثاني : أنه مخصوص ، والمعنى لا ريب فيه عند المؤمنين. والثالث انه خبر معناه النهي ، والأول : أحسن)[٣٧] .

هكذا بين العلامة الجمل أن الأحسن أن المنفى كون القرآن متعلقاً للريب ومحلا له .

يقول العلامة الجزيّ : (وخبر لا ريب : فيه ، فيوقف عليه . وقيل خبرها محذوف فيوقف على (لا ريب) [٣٨]

واضح أن كلمة (فيه) هنا يأتي معناها مع ما قبلها بمعنى أن القرآن ليس موضعاً طولا محلا للريب ونأخذ هذه الدلالة من ارتباط (فيه) بما قبلها وتكون (هدى) حالا أو خبرا ثانيا كماوضحنا

– أما البدء بـ(فيه) (فيه هدى للمتقين) فيغير المعنى ويعطينا وجهاً أخر غير الأول لتكون كلمة (فيه) خبراً مقدما و(هدى) مبتدأ مؤخراً ،أى الكتاب فيه هدى للمتقين ، والاختلاف واضح فالمعنى على ما أفهمه من تدبر ذلك ومراجعة كلام العلماء ، أن المراد هنا : أن القرآن (فيه هدى) بمعنى يوجد فيه هدى للمتقين ، وعلى ما سبق أن القرآن نفسه هدى للمتقين ، والمعنيان مختلفان ، وتختلف دلالة الجملة الأولى كذلك ليكون المعنى الوقوف على (ريب) أنه لا يوجد ريب ولا يوجد شك أن هذا القرآن هو الكتاب المنزل من عند الله ، أو الكتاب الذي يقرؤه محمد صلى الله عليه وسلم .

الزمخشري وابن المنير

وقد التمسنا ذلك في كلام المفسرين فوجدناه ، فهذا هو العلامة جار الله الزمخشري . رحمة الله عليه . يشير إلى الوقف على (لا ريب) ولم يوجه دلالة البدء بـ(فيه) أعنى لم يفسر التجاذب في هذا الموضع ، لكنه تكلم في سر إيلاء (ريب) حرف النفي (لا) وعدم تقدم : حرف الظرفية (فيه) أى لم يأت الكلام لا فيه ريب ، ثم انتقل إلى بيان قراءة الوقف على (لا ريب) ليوضح ابن المنير في تعليقه على كلامه سر التجاذب وتغاير الدلالة بالوقوف على (لا ريب) والبد فيه بـ(فيه) وهنحن نعرض كلام الزمخشري ثم نعرض تعليق ابن المنير الذي يفسر بلاغة التجاذب ودلالته في هذا الموضع .

يقول العلامة الزمخشري : (فإن قلت : فهل قدم الظرف على الريب كما قدم على القول في قوله تعالى : (لافيها غول) قلت : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفى

الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه. ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد ، وهو أن كتاب آخر فيه الريب ، كما قصد في قوله : (لا فيها غِول)

تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول ، كما تغتالها هي ، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة ، وقرأ أبو الشعناء : (لا ريب فيه) بالرفع والفرق بينهما وبين المشهورة ، أن المشهورة توجب الاستغراق وهذه تجوزه ، والوقف على (فيه) هو المشهور ، وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على (لا ريب) ولابد للواقف من أن ينوي خبرا ، ونظيره قوله تعالى : (قالوا لا ضير) وقول العرب : لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز ، والتقدير : لا ريب فيه (فيه هد) [٣٩].

– أما تعليق العلامة ابن المنير على بعض هذا الكلام والذي يفسر فيه دلالة التجاذب في (فيه) بالوقف عليها تارة ، والبدء بها أخرى فهذا نصه : (قوله : (هو المشهور) فعلى هذا يكون الكتاب نفسه هدى ، وعلى الآخر ظرفا له ، والأول أبلغ فالمشهور أولى ، (قوله : من أن ينوي خبرا) وذلك ليكون الموقوف عليه مفيدا معنى تاما وإلا كان الوقف قبيحا ناقصا) [٤٠]

ونلاحظ أن ابن المنير فضل الوقف على (فيه) وجعله أبلغ ولم يعلل لوجه البلاغة سوى بأنه المشهور والمشهور أولى ، والشهرة ليست توجيها مقنعاً للأبلغية ، ولعله أراد بكونه أبلغ، أن الوقوف على (فيه) والبدء بـ(هدى) يجعل القرآن كله هدى ، وليس فيه هدى فحسب ، كما يدل على ذلك الوقوف على (لا ريب) والبدء بـ(فيه) والله أعلم .

ويقول العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ موجزا دلالة البدء بـ(فيه) والوقف على لا ريب وهو غير المشهور كما أشار ابن المنير فيقول : (وارتفع (هدى) على الابتداء ، والخبر (فهي) .

والهدى في كلام العرب معناه الرشد والبيان ، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى) [٤١].

عود إلى رأي البيضاوي والشهاب

أما العلامتان البيضاوي والشهاب الخفاجي فإنهما شفيا غلتنا في الكشف عن دلالة التجاذب في هذا السياق الحكيم ، وبينا البلاغة المترتبة على التوجيه الإعرابي ، في الوقف على (لا ريب) وعلى (فيه) وقد وضحنا سلفاً ما ذكراه في الدلالة البلاغية في الوقف على (فيه) وهنا نبين ما قالاه في الوقف على (لا ريب) والبد بـ(فيه) إذ إنه الوجه الثاني لأسلوب التجاذب.

يقول البيضاوي : (وهدى ، نصب على الحال ، أو الخبر محذوف كما في (لا ضير) لذلك وقف على : (لا ريب) على أن (فيه) خبر (هدى) قدم عليه لتنكيره ، والتقدير : لا ريب فيه ، فيه هدى للمتقين ، وأن يكون (ذلك) مبتدأ ، و(الكتاب) خبره ، على معنى أنه الكتاب الكامل ، الذي يستأهل أن يسمى كتابا ، أو صفته ، وما بعده خبره ، والجملة خبر (ألم) [٤٢].

اما العلامة شهاب الدين الخفاجي . رحمه الله . فيزيد هذا وضوحا معلقا على كلام البيضاوي ، فيقول : (وحذف الخبر كما في (لا ضير) أى فيه ، هو الأفصح الأكثر ، وقد التزمه بعض العرب ، وجعله لازماً مع القرينة وحينئذ يصح الوقف على ((ريب) لتمام اللفظ والمعنى قال في المرشد : إن جعلت(لا ريب) بمعنى حقاً ، فالوقف عليه تام ، ولا حاجة لتقدير (فيه) ولولاه كان قبيحاً. وقال الإمام : الأولى الوقف على (فيه) ليكون الكتاب نفسه هدى ، وقد ورد في آيات كثيرة وصفه بأنه نور أو هدى ، وفيه نظر ، وهذا الوقف لنافع وعاصم وقوله : على أن (فيه) خبر (هدى) أى لفظ فيه المذكور وخبر (لا ، فيه) أخرى مقدرة. قوله : (وهدى نصب الخ) ذو الحال (ذلك) ، أو (الكتاب) والعامل على كلا التقديرين اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المجرور في (فيه) والعامل ما في الظرف من معنى الفعل ، وجعل المصدر حالا على الأوجه المشهورة في أمثاله) [٤٣].

وبقى في هذا الموضع أن نوضح سر اختصاص المتقين بالهدى ، فالسياق يقول إنهم خصوا بذلك على وجهي التجاذب ، أى : فيه هدى للمتقين ، أو هو هدى للمتقين ، ونكتفي هنا بقول العلامة البيضاوي والشهاب أيضا ، وقد أوردا في ذلك كلاماً طويلا لا تتسع له هذه الدراسة ولا يستدعيه سياقها نستخلص منه ما يأتي ، قال البيضاوي : (واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به المنتفعون بنصه ، وإن كانت دلالته عامة لكل ناظر مسلم او كافر ، وبهذا الاعتبار قال تعالى : (هدى للناس) [٤٤]، أو أنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات ، والنظر في المعجزات ، وتعرف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة ، فإنه لا يجلب نفعا ما لم تكن الصحة حاصلة) [٤٥].

أما الشهاب فيعلق قائلاً : وإنما خصوا بالذكر لأنهم أكمل الأفراد وأشرفهم ، إذ هم المنتفعون بالدلالة وثمرة الإيصال ، لا أنها مختصة بهم فهي هناك على الحقيقة) [٤٦].

المبحث الثالث: التجاذب في (لكم)

قال تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) سورة النحل: ٥.

في سياق مَنِّ الله وتفضله على عباده تأتي الآية الكريمة ، فقبلها : (خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) (٤٧)

وبعدها تفصيل لفوائد الأنعام وما يعود منها على الإنسان من خير ومنافع : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم) (٤٨)

هكذا تنتظم الآية الكريمة في هذه السلسة الذهبية وقد ذكرت ما بعدها وما قبلها لنتأملها في سياقها المحكم .

نجد السياق يوضح لنا أن الإنسان الذي خلقه الله بقدرته ، ولا دخل له في وجود نفسه، ينسى هذه الحقيقة ويغفل حقيقة صنعه وخلقه من نطفة ، وتغره قوته فإذا هو مخاصم مجادل لربه وخالقه . والأنعام خلق من خلق الله جعلها الله لنفع الإنسان (فيها دفء) ما يستدفأ به من الأصواف والأوبار والأشعار (ومنافع) في ظهورها وجلودها ونسلها (ومنها تأكلون) اللحوم والشحوم والألبان ، ثم هناك من المتاع المعنوي (ولكم فيها جمال) زينة وأبهة (حين تريحون) عند الرواح والعود بها في الغداة إلى مراعيها (فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين فيجل أهلها في أعين الناظرين ، وتقديم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع) (٤٩) إلى غير ذلك من فوائد حمل الأثقال ، والاعتماد عليها في الأسفار.

موضع التجاذب

هذا ما يوضحه السياق ، أما الآية موضع الدراسة فإن التجاذب الذي نقصد إليه في (لكم) وقفاً وابتداءً . فالوقف على (لكم) والابتداء بـ(فيها) يؤدي معنى والوقف على (خلقها) والابتداء بـ(لكم) يؤدي معنى آخر ، وبهذا نجد الكلمة ذات وجهين تعطي مع ما قبلها إذا أردنا ذلك ، وتعطى مع ما بعدها إذا أردنا ذلك . وعطاؤها مع ما قبلها لا يؤثر على ما بعدها في المعني، وعكس ذلك صحيح .

– فإذا ما وقفنا على (خلقها) فقرأنا (والأنعام خلقها) فيكون المعنى بيانا لفضل الله في خلق الأنعام فهو سبحانه الذي خلقها وإليه يعود الفضل والجود وفي ذلك بيان لقدرته تعالى حيث خلق الإنسان من نطفة ، وخلق الأنعام كذلك .

ثم نبدأ (لكم فيها دفء ...) فيكون المعنى مبينا لما يعود علينا من فوائد الأنعام ، فمن فوائدها لنا فيها دفء ومنافع ...)

– وإذا ما وقفنا على (لكم) فقرأنا : (والأنعام خلقها لكم) فيكون المعنى بيانا لعلة خلق الأنعام وسر وجودها فهي خلقت لنا ، وتعطى اللام حينئذ معنى الاختصاص أى الأنعام مختصة بكم مقصورة عليكم ثم نبدأ (فيها دفء ومنافع ..) فيكون المعنى بيانا لما في الأنعام من فوائد ومنافع دونما إشارة إلى عودة هذه المنافع وتلك الفوائد علينا أو عدم عودتها وانطلاقا من اختلاف عطاء الكلمة باختلاف الوقف والابتداء ، اختلف العلماء في توجيه المعنى . فمنهم من وضح التجاذب ببيان تغاير المعنى بالوقف على (لكم) تارة والبدء بها تارة أخرى . ومنهم من اختار الوقف على (لكم) واكتفى ببيان ذلك ، ولم يتعرض للبدء بها لتعطي جديدا مع ما قبلها . ومنهم من اختار البدء بها واكتفى بدلالة ذلك ، ولم يتعرض لدلالة الوقف عليها والبدء بما بعدها ، والجميع يدور في فلك هذا الفن البلاغي الدال على الإعجاز وتعدد الدلالات البلاغية للتعبير الواحد في سياقه القرآني المحكم البديع .

وإذا وجهنا قلمنا ليتتبع ذلك عند المفسرين وجدناه يخط لنا سطوراً عن هذه الوجهات الثلاث.

العلامة الشهاب

نجد من العلماء الذين بينوا وجهي الدلالة ببيان التجاذب في (لكم) في تلك الآية المباركة العلامة الشهاب الخفاجي (عليه سحائب الرحمة والرضوان) قال : (والكلام تم عند قوله(خلقها)ويجوز أن يتم عند قوله: (لكم) متعلقة بـ(خلقها) والأول أولى لعطف قوله : (ولكم فيها جمال) عليه . وعليه فالحصر مستفاد من التقديم ، وعلى الأول من اللام ، أو الفحوى والمقام)[٥٠]

تأمل قوله : (والكلام تم عند قوله (خلقها) وهذا يعني الوقوف عليها ، ثم البدء بـ(لكم) وجعل هذا الوجه أولى وبين سبب ذلك وهو عطف (ولكم فيها جمال) أى عطف ما لهم من منافع الأنعام بعضه على بعض : (لكم فيها دفء ومنافع ... ولكم فيها جمال) .

ثم قال مشيراً إلى الوجه الثاني : بقوله : (ويجوز ان يتم عند قوله : (لم متعلقة بخلقها) ليكون المعنى أن الأنعام مخلوقة لهم أى من أجلهم إنعاما عليهم .

الألوسي

ومن العلماء الأعلام الذين وجهوا التجاذب ودلالته في سياق الآية دلالتين مختلفتين– ترتيبا على اختلاف الوقف العلامة الألوسي – رحمه الله– قال : (لكم ، إما متعلق بـ(خلقها) وقوله تعالى : (فيها) خبر مقدم ، وقوله – جل وعلا– : (دفء) مبتدأ مؤخر،

والجملة حال من المفعول ، أو الجار والمجرور الأول ، خبر للمبتدأ المذكور ، والثاني متعلق بما فيه من معنى الاستقرار ، وقيل : حال من الضمير المستكن فيه العائد على المبتدأ ، وقيل حال من (دفء) إذ لو تأخر لكان صفة ... ونقل أنهم جوزوا أن يكون (لكم) متعلقا بـ(خلقها) وجملة (فيها دفء) استئناف لذكر منافع الأنعام ، واستظهر كون جملة (لكم فيها دفء) مستأنفة ، ثم قال : ويؤيد الاستئناف فيها ، الاستئناف في مقابلتها ، أعنى قوله تعالى : (ولكم فيها جمال) فقابل . سبحانه . المنفعة الضرورية بالمنفعة الغير الضرورية ، وإلى نحو ذلك ذهب القطب فاختار أن الكلام قد تم عند (خلقها) لهذا العطف ، وخالفه في ذلك صاحب الكشف ، فقال : إن قوله تعالى : (خلقها لكم) بناء على تفسير الزمخشري لها بقوله ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان طرف من ترشيح المعنى الثاني في قوله . سبحانه . (فإذا هو خصيم مبين) لما في الالتفات المشار إليه من الدلالة عليه ، وأما الحصر المشار إليه بقوله : (ما خلقها إلا لكم ، فمن اللام المفيدة للاختصاص لاسيما وقد نوع الخطاب بما يفيد زيادة التمييز والاختصاص ، وهذا أولى من جعل (لكم فيها دفء) مقابل (لكم فيها جمال) لإفادته المعنى الثاني ، وأبلغ على أنه يكون (فيها دفء) تفصيلا للأول ، وكرر (لكم) في الثاني لبعد العهد، وزيادة التقريع . والحق في دعوى أولوية تعلق (لكم) بما قبله معه ، كما لا يخفى) [٥١] .

هكذا أورد العلامة الألوسي ، تعلق (لكم) بما قبلها بالوقف عليها ، والبدء بـ(فيها دفء) على أنها استئناف لذكر منافع الحيوان .

وأورد تمام الكلام عند (خلقها) والبدء بـ(لكم) على أنها استئناف مستدلا بالاستئناف في مقابلها (ولكم فيها جمال) وأن السياق الحكيم قابل بين المنفعة ضرورة الكائنة في منافع الأنعام والمنفعة الغير ضرورية وهي الجمال .

الجزّي والنيسابوري والسمين

– وهذا العلامة الجزي يقول : (ويحتمل أن يكون قوله (لكم) متعلقا بما قبله أو بما بعده، ويختلف الوقوف باختلاف ذلك) [٥٢].

– وممن أشار إلى الوجهين وبين التجاذب في عبارة موجزة العلامة النيسابوري ، قال: يذكر الوقف : (خلقها) لاحتمال تمام الكلام ، واحتمال أن يكون (لكم) متعلقا به ، والوقف حينئذ على(لكم) [٥٣].

– ومن العلماء الذين وجهوا التجاذب في العبارة الكريمة العلامة السمين الحلبي . رحمه الله . قال (قوله : (لكم فيها دفء) يجوز أن يتعلق (لكم) بـ(خلقها) أى لأجلكم ولمنافعكم، ويكون (فيها) خبراً مقدماً ، و(دفء) مبتدأ مؤخراً ، ويجوز أن يكون (لكم)

هو الخبر ، و(فيها) متعلق بما تعلق به الخبر ، أو يكون (فيها) حالاً من (دفء) لأنه لو تأخر لكان صفة له) (٥٤)

وتعلق (لكم) بخلقها يكون بالوقف على (لكم) والبدء بـ(فيها دفء) وكون (لكم) هو الخبر يكون على الوجه الثاني ، أعني بالوقف على (خلقها) والبدء بـ(لكم).

العلامة الجمل

-وأخيراً نرى توجيه دلالة التجاذب وعلى الوجهين اتباعا للوقف فيما أورده العلامة الجمل ـ رحمه الله ـ قال : (لما ذكر الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان وذكر بعض ما ينتفع به الإنسان في سائر ضروراته ، ولما كان أعظم ضروراته الأكل واللبس اللذين يقوم بهما بدنه بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الأنعام ، فقال : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: (لكم) ثم ابتدأ فقال : (فيها دفء) (٥٥)

الزمخشري

-ومن العلماء الذين اختاروا الوقف على (لكم) واكتفوا بتوجيه المعنى على ذلك العلامة جار الله الزمخشري ـ رحمه الله ـ قال : (والأنعام الأزواج الثمانية ، وأكثر ما تقع على الإبل ، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر ، كقوله تعالى : (والقمر قدرناه) ويجوز أن يعطف على الإنسان ، أى : خلق الإنسان والأنعام ، ثم قال : (خلقها لكم) أى ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان) .

هكذا شرح العلامة الزمخشري المعنى على تعلق (لكم) بما قبلها فتؤدي معنى اختصاص الأنعام بهم ذلك الاختصاص المأخوذ من معنى اللام في (لكم) أى ما خلقها إلا لكم ، وهذا على سبيل القصر والتخصيص المعنوي لأن التخصيص باللام ليس من طرق القصر الاصطلاحي التي ذكرها البلاغيون واكتفى العلامة الزمخشري بهذا ولم يتعرض للوجه الثاني ، أعنى لم يذكر البدء بـ(لكم) والوقف على (خلقها) (٥٦).

الشوكاني

-وكما جعل الزمخشري لكم متعلقة بما قبلها وبدأ بـ(فيها دفء) جعلها كذلك العلامة الشوكاني فقد وضح صلة الآية بما قبلها شارحاً الآية مبينا صلة ما قبل الوقف بما بعده قال : (عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع بهذا النوع ، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها ، فقال : (والأنعام خلقها لكم) وهي الإبل والبقر والغنم ، وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للجموع ولا يقال للغنم مفردة .... ثم لما أخبر – سبحانه– بأنه خلقها لبنى آدم بين المنفعة التي فيها له، فقال: (فيها دفء) الدفء :

السخانة وما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، والجملة في محل نصب على الحال ، و(منافع) معطوف على (دفء) وهي درها وركوبها ونتاجها والحراسة بها ، ونحو ذلك) (٥٧)

هكذا وضح بالوقف على (لكم) أن المعنى : أنه خلقها لبنى آدم ، والبدء بـ(فيها دفء) بيان المنفعة التي فيها .

ابن عاشور

-ومن العلماء الذين بينوا المعنى بالوقف على (خلقها) والبدء بـ(لكم) العلامة الطاهر بن عاشور . رحمه الله . فقد تحدث عن نصب الأنعام ذاكراً وجهين لسر النصب : إما بالعطف على الإنسان ، أى : خلق الإنسان والأنعام ، وإما بفعل محذوف يفسره المذكور على طريق الاشتغال ، أى : وخلق الأنعام خلقها ، واسترسل مبيناً أن جملة (لكم فيها دفء) في موضع الحال من الضمير (الهاء) في خلقها وبهذا يكون جعل (والأنعام خلقها) جملة عندها يتم الكلام ويوقف على خلقها ، و(لكم فيها دفء) جملة ويبدأ منها ، هذا مفهوم من كلامه وإن لم ينص عليه نصاً . وهذا كلامه :

(يجوز أن يعطف الأنعام عطف المفرد على المفرد عطفا على الإنسان (النحل :٤) أي خلق الإنسان من نطفة والأنعام وهي أيضا مخلوقة من نطفة فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان ، وتكون جملة (خلقها) مستأنفة فيحصل بذلك الامتنان.

ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة ، فيكون نصب الأنعام بفعل مضمر يفسره المذكور بعده على طريقة الاشتغال والتقدير :وخلق الأنعام خلقها . فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد فيكون امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم ، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها ، فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا ، وأي كفر أعظم من أن يتقرب بالمخلوقات إلى غير من خلقها ؟! وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين . وجملة : (لكم فيها دفء) في موضع الحال من الضمير المنصوب في (خلقها) على كلا التقديرين ، إلا أن الوجه الأول تمام مقابلة لقوله تعالى: (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) (سورة النحل:٤) من حيث حصول الاعتبار ابتداء ثم التعريض بالكفران ثانيا ، بخلاف الوجه الثاني فإن صريحه الامتنان ، ويحصل الاعتبار بطريق الكناية من الاهتمام . والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى : (والأنعام خلقها) وما بعده إدماج للامتنان) (٥٨).

العلامة البقاعي

-وممن اختار هذا الوجه في الآية الكريمة أيضاً العلامة برهان الدين البقاعي . رحمه الله . فقد شرح الآية على أن : (لكم فيها دفء) استئناف ، وهذا يعني أنه يقف على (خلقها) ففي طي شرحه للآية وبيان ما فيها من بلاغة وسر ترتيب النعم عل النسق الذي جاءت عليه ، في طي ذلك . جاء كلامه في البدء بـ(لكم) قال رحمه الله . : (والأنعام ، أ الأزواج الثمانية : الضأن والمعز والإبل والبقر (خلقها) غير ناطقة ولا مبينة مع كونها أكبر منكم خلقا وأشد قوة

ولما كان أول ما يلقى الإنسان عادة من نعمها اللباس بدأ به ، فقال على طريق الاستئناف لكم فيها دفء) أى ما يدفأ به فيكون منه حر معتدل من حر البدن الكائن بالدثار بمنع البرد ، وثنى بما يعم جميع نعمها التي منها اللبن ، فقال : (ومنافع) ثم ثلث بالأكل لكونه بعد ذلك، فقال تعالى : (ومنها تأكلون) وقدم الظرف دلالة على أن الأكل من غيرها بالنسبة إلى الأكل منها مما لا يعتد به) (٥٩)

- هذا وقد ذكرت بعضا من كلام من اكتفى ببيان وجه واحد من وجهي التجاذب في الآية الكريمة بعد ذكر من وضح الوجهين ، لأن منهم من وقف على (خلقها) وبدأ بـ(لكم) شارحاً المعنى على ذلك فحسب ، ومنهم من وقف على (لكم) وبدأ بـ(فيها) شارحاً المعنى على ذلك فحسب وفي هذا الاختلاف دليل على أن الآية فيها الوجهان فبالنظر إلى كلام الفريقين يتضح التجاذب ، ونرى أن (لكم) في قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) تعطي معنيين مختلفين مع ما قبلها وما بعدها باختلاف الوقف والابتداء .

المبحث الرابع : التجاذب في (هم العدو)

قال تعالى في شأن المنافقين :

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) المنافقون : ٤ .

جاءت الآية الكريمة تنتظم سلسلة من الذم للمنافقين في مطلع سورة المنافقين هؤلاء الكاذبون المخادعون الذين اتخذوا أيمانهم جنة ووقاية وصدوا بذلك عن سبيل الله ، فلما ضلوا أصلهم الله وطبع على قلوبهم .

وتعرض الآية الكريمة صورة مذرية لهم فهم أجسام بلا أحلال وأشباح بلا أرواح . لهم منطق رخيم ولسان معسول ، فرؤية ظاهرهم تعجب وكلامهم يسمع لأن نفاقهم يجدوهم إلى أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . وهم جبناء ينتقضون إذا صاح صائح خوفا وفرقا ويحسبون كل صيحة تقصدهم بالهلاك ، أو يحسبون كل صيحة هي العدو إلي بغتهم، ولذلك جاء التحذير منهم ، والدعاء عليهم بالقتل والدمار .

والآن نذكر العبارة التي جاءت في سياق هذه الآية وتشير إلى التجاذب فيها ، ثم نحلل ذلك مستنطقين السياق مناقشين كلام العلماء .

والعبارة هي: (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله)

والتجاذب في قوله تعالى : (هم العدو) هذه الجملة يتجاذبها ما قبلها وما بعدها ، من خلال تغاير الوقف والابتداء ، فإذا وقفنا على (عليهم) وبدأنا بـ(هم العدو) أعطت مع ما بعدها معنى وإذا وقفنا على (هم العدو) وبدأنا بـ(فاحذرهم) أعطت مع ما قبلها معنى .

فإذ قرأنا هكذا : (يحسبون كل صيحة عليهم) كأن المعنى أنهم لفرط خوفهم وشدة فزعهم وتوقع الفارة عليهم يحسبون كل صيحة آتية عليهم أو صائحة أو واقعة عليهم تقصدهم وتعمد إلى قتلهم فـ(عليهم) المنقول الثاني فحسب ثم تستأنف (هم العدو) أى هؤلاء المنافقون هم العدو فاحذرهم يا محمد ، فيكون الضمير (هم) عائدا إلى المنافقين وإذا قرأنا هكذا : (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) ووقفنا عل (هم العدو) ثم بدأنا (فاحذرهم) كان المعنى أنهم يحسبوا كل صيحة عليهم العدو الذي جاء ليعتدي عليهم ، ويكون الضمير هم ليس عائدا على المنافقين ، وإنما يحسبون أن الصائح عليهم هم العدو ، فيكون (هم العدو) وهو المفعول الثاني لحسب .

والسياق الحكيم يتسع لهاتين الدلالتين المختلفتين باختلاف الوقف والابتداء .

وهنا نعرض لما تتبعناه من كلام أئمة المفسرين نستوضح من خلاله دلالة التجاذب وأثره على المعنى في هذا السياق أرامي إلى دم المنافقين .

البيضاوي وتعليق الشهاب

فهذا العلامة البيضاوي –رحمه الله– يقول : (يحسبون كل صيحة عليهم أى واقعة عليهم لجنبهم واتهامهم ، فعليهم ثاني مفعولي يحسبون ، ويجوز أن يكون صلته ، والمفعول (هم العدو) وعلى هذا يكون الضمير للكل ، وجمعه بالنظر إلى الخبر ، لكن ترتب قوله (فاحذرهم) عليه يدل على أن الضمير للمنافقين (قاتلهم الله) دعاء عليهم ، وهو طلب من ذاته أن يلغهم ، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك (أن يؤفكون) كيف يصرفون عن الحق)[٦٠].

هكذا ذكر العلامة الشهاب الوجهين : الوقف على (عليهم) على أنها المفعول الثاني لمضارع (حسب) و(هم العدو) استئناف ويعود الضمير حينئذ على المنافقين ، والوقف على (هم العدو) على أنه المقول الثاني ، و(عليهم) متعلق بصيحة ويقصد بالضمير حينئذ العدو الذي يحذرون غارته عليهم .

ومع أنه ذكر الوجهين كنه اختار الوقوف على (عليهم) مستدلا بالسياق ، به فـ(العدو) هم المنافقون بدلالة قوله بعده (فاحذرهم) فالأمر بالحذر منهم يناسب عداوتهم ، لا جبنهم على ما يقتضيه الوصل . كما علل . رحمه الله . لجمع الضمير (هم) إذ الظاهر أن يقول : هو العدو ، أو هى الصيحة ، فذكر أن الجمع بالنظر إلى الخبر ، على أن (العدو) يأتي مفردا وجمعا .

. وقد وضح العلامة الشهاب الخفاجي ما قاله العلامة البيضاوي ووافقه فيما قال ، قال . رحمه الله : (قوله : ويجوز أن صلته ، أى صلة صيحة لتعلقه به ، لأنه يقال : صاح عليه ... قوله : على هذا يكون الضمير ، وهو قوله (هم) فيحنئذ كان الظاهر إفراده ، بأن يقال : هو ، أو هى ، لكنه أتى بضمير العقلاء المجموع لمراعاة معنى الخبر ، وهو مما جوز النحاة ، وهذا بناء على أن العدو يكون جمعا ومفردا وهو هنا جمع ، وهذا وإن كان خلاف المتبادر لكن في معناه من البلاغة واللطف ما لا يخفى ... قوله : لكن ترتب قوله الخ ، لأن التحذير منهم يقتضي وصفهم بالعداوة ، لا بالجبن ، كما يفيده ما قبله ، وهذا

الضمير للمنافقين بلا شبهة ، فإذا عاد ما قبله على العدو لزم تفكيك الضمائر ، وفي اتصال قوله : للمنافقين ، بقوله : قاتلهم الله إيهام لطيف لا يخفى لطفه ، قوله : طلب ، لأنه دعاء ، والدعاء من أقسام الطلب ، والمطلوب منه في الدعاء هو الله، فيكون طالبا من نفسه لعنهم ، ويكون كما في قولك : أستاذك يقول لك كذا ، وهو معدود من التجريد ، فلا يكون من إقامة الظاهر مقام الضمير ، لأنه يفوت به نضارة الكلام كما لا يخفى) (٦١).

هذا تعليق العلامة الشهاب على كلام البيضاوي ، وقد وافقه بان جعل (هم العدو) عائد على المنافقين ، واستدل بما تستدل من دلالة الأمر بالإنذار على العداوة لأعلى الجبن ، وزاد ، دلالة العطف بإلغاء على الترتيب والتعقيب أى فأسرع إلى الحذر منهم لأنهم العدو . كما ذكر أن الفاء في (فاحذرهم) للمنافقين بلا شبهة ، فإذا جعلنا ما قبله (هم) للعدو ، كان ذلك من تفكيك الضمائر ، وبعد أن وضح أن الخبر في (قاتلهم) مقصود به الدعاء ، ذكر أن الله تعالى ، يطلب من نفسه لعنهم وجعل ذلك من التجريد لا من وضع الظاهر موضع الضمير ، وهو يقصد ليس الأصل أن يقول : قاتلتهم فقال : قاتلهم الله ، وإنما جرد تعالى من نفسه من يخاطبه كما تقول ، عن نفسك : أستاذك يقول كذا ... وأجد في نفسي شيئا من جعله ذلك تجريدا ، فعل يجوز أن نقول : إن الله جرد من نفسه من يخاطبه ؟ أرى ذلك مما ينبغي الترفع عنه والحيطة من ذكر مثله ولذلك رأيناه كأنه يهرب من ذلك بالمثال الذي ذكره ، ولم يذكر نسبة التجريد إلى الله عز شأنه مباشرة .

على أية حال فإن أسلوب التجاذب جابر في قوله تعالى : (هم العدو) وقفا وابتداء وإن قوى أحد الوجهين على الآخر لدلالة السياق عليه .

الزمخشري والسمين

. أما العلامة جار الله الزمخشري . رحمه الله . فبين كيف تجاذب (هم العدو) ما قبلها وما بعدها ، يقول : (عليهم ، ثاني مقول (يحسبون) أى يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب ، إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت ذاته ، أو أنشدت ضالة ، ظنوه إيقاعاً بهم ، وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم .... يوقف على (عليهم) ويبدأ (هم العدو) أى الكمالون في العداوة ، لأن أعدى الأعداء العدو المراجي الذي يكاثرك وتحت ضلوعه الراء الدوى ، فاحذرهم ولا تغتر بظاهرهم . ويجوز أن يكون (هم العدو) .

المفعول الثاني ، كما لو طرحت الضمير ، فإن قلت : حقه أن يقال :هي العدو . قلت: منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر في هذا ربى ، وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل صيحة (قاتلهم الله) دعاء عليهم ، وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم ، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك (أتى يؤفكون) كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم) (٦٢)

كما رأيت : ذكر العلامة الزمخشري التجاذب في (هم العدو) فبالوقوف على (عليهم) والابتداء بـ(هم العدو) تكون دلالتها مع ما بعدها ، أى هم المنافقون الكمالون في العداوة. و(عليهم) المفعول الثاني بـ(يحسبون) وبالوصل يكون (هم العدو) المفعول الثاني ، وتكون دلالتها مع ما قبلها ، كما لو أن الضمير مطروح غير موجود ، أى يحسبون كل صيحة العدو .

ـ وكما وضح الزمخشري التجاذب وضحه كذلك العلامة السمين ، فقال: (قوله : (يحسبون كل صيحة عليهم) فيه وجهان ، أظهرهما : أن (عليهم) هو المفعول الثاني للحسبان ، أى : واقعة وكائنة عليهم ، ويكون قوله : (هم العدو) جملة مستأنفة ، أخبر تعالى بذلك .

والثاني : أن يكون (عليهم) متعلقاً بصيحة ، و(هم العدو) الجملة في موضع المفعول الثاني للحسبان). (٦٣)

دلالتا التجاذب واضحتان في كلام العلامة السمين فقد أوجز وأجاد وأفاد ، فـ(هم العدو) إما أن تكون مستأنفة ، وإما أن تكون المفعول الثاني للحسبان والوجهان مختلفان، والدلالتان متغايرتان والسياق المحكم يتسع لهما .

القرطبيّ

–ومن العلماء الذين وضحوا التجاذب في هذا الموضع العلامة القرطبي ـ رحمه الله عليه ـ قال : قوله تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) أى كل أهل صيحة عليهم هم العدو ، فـ(هم العدو) في موضع المفعول الثاني ، على أن الكلام لا ضمير فيه ، يصفهم بالجبن والخور. قال مقاتل والسدى : أى إذا نادى مناد في العسكر أن انفلتت دابة ، أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون ، لما في قلوبهم من الرعب ، كما قال الشاعر :

ما زلت تحسب كل شئ بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالاً

وقيل : (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد، وتقديره: يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فطن بهم وعلم بنفاقهم ، لأن للريبة خوفا . ثم استأنف الله خطاب نبيه ﷺ فقال : (هم العدو) وهذا معنى قول الضحاك .

وقيل : يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم ، وأن النبي ﷺ قد أمر فيها بقتلهم ، فهم أبدا وجلون من أن ينزل الله فيهم أمرا يبيح به دماءهم ، ويهتك به أستارهم). (٦٤)

هكذا وضح العلامة القرطبي الوجهين وقفاً وابتداءً وشرح أن بالوقف على (عليهم) وجعله مفعولاً ثانياً لـ(يحسب) يكون المراد في السياق وصفهم بالجبن والخور ، لأن خوفهم وفزعهم وتوقعهم المكروه في كل لحظة ، أو أن النبي يبعث إليه من يقتلهم لما ألقاه الله في قلوبهم من الرعب والفزع جعلهم يحسبون كل صيحة آتية عليهم وأنهم فضحوا وعلم امرهم .

الألوسي وأبو السعود

ودعماً لما ذكرناه من وضوح التجاذب وتغاير الدلالة في هذه العبارة الكريمة ، نذكر بعض الآراء التي اختارت وجهاً من وجهي التجاذب من خلال النظر في السياق إذ إن خلاف العلماء في ذلك يؤيد وجود اختلاف وتغاير في المعنى المترتب على الوقف والابتداء.

فهذا العلامة الألوسي . رحمه الله . يختار الوقوف على (عليهم) ويجعله مفعولاً ثانيا لـ(يحسبون) ويجعل (هم العدو) استئنافا .، ويعرض كلام الزمخشري ويرد عليه مستدلاً بأن السياق لا يؤيد قوله بأن (هم العدو) هو المفعول الثاني ، وأن (عليهم) متعلق بصيحة .

وهذا كلامه . طيب الله ثراه .:

(والوقف على (عليهم) الواقع مفعولاً ثانيا لـ(يحسبون) وهو وقف تام كما في الكواشي ، وعليه كلام الواحدي ، وقوله تعالى : (هم العدو) استئناف ، أى هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعادى العدو المداجي ، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي ، ككثير من أبناء الزمان ، (فاحذرهم) لكونهم أعدى الأعادى ولا تغتر بظاهرهم ، وجوز الزمخشري كون (عليهم) صلة صيحة ، و(هم العدو) المفعول الثاني لـ(يحسبون) كما لو طرح الضمير على معنى أنهم يحسبون الصيحة نفس العدو ، وكان الظاهر عليه ، هو أو هى العدو ، لكنه أتى بضمير العقل : المجموع لمراعاة معنى الخبر ، أعنى العدو بناء على أن يكون جمعا ومفردا ، وهو هنا جمع، وفيه أنه تخريج متكلف بعيد

جدا لا حاجة إليه ، وإن كان المعنى عليه لا يخلو من بلاغة ولطف ، ومع ذلك لا يساعد عليه ترتب : (فاحذرهم) لأنم التحذير منهم يقتضي وصفهم بالعداوة ، لا الجبن)[٦٥]

عد العلامة الألوسي ما قاله العلامة الزمخشري في الوجه الثاني من التجاذب تكلفا لا حاجة إليه ، ولا أدرى أين التكلف لاسيما أن السياق المحكم يتسع له ؟!

والعجيب أن العلامة الألوسي كاد ينقض ما قاله ويرجع عنه لأنه أردف ما عده تخريجاً متكلفاً لا حاجة إليه بقوله : (وإن كان المعنى عليه لا يخلو من بلاغة ولطف) كيف اجتمع عنده التكلف مع البلاغة واللطف ؟!

ثم عاد سريعا كأنه أحس بالتذبذب في الرأى . عاد سريعاً . يدلل لاختياره الوقوف على (عليهم) وجعله مفعولاً ثانيا ، وجعل العدو هم المنافقون ، بدلالة (فاحذرهم) إذا التحذير يكون من العدو أي احذرهم يا محمد لعداوتهم ، لا لجبنهم ، كما يدل عليه الوقوف على (عليهم) .

– وكما رأى العلامة الألوسي رأى العلامة أبو السعود وتعقب الزمخشري كما تعقبه، قال رحمه الله . في قوله تنعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم) (أى واقعة عليهم ضارة لهم لجبنهم واستقرار الرعب في قلوبهم ، وقيل كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم (هم العدو) .... والجملة مستأنفة وجعلها مفعولا ثانيا للحسبان مما لا يساعده النظم الكريم أصلا ، فإن الفاء في قوله (فاحذرهم) لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء ...) [٦٦].

هكذا رأى العلامة أبو السعود ، أن (هم العدو) لا تصلح مفعولاً ثانيا لـ(يحسبون) إذ النظم لا يساعد على ذلك ، لأن ترتب الأمر بالحذر المستفاد من الفاء العاطفة على أنهم أعد الأعداء ، يدل على أن (هم العدو) استئناف لقصد وصف المنافقين بالعداوة ولذلك أمر بالحذر منهم .

الطاهر ابن عاشور

–أما العلامة الطاهر بن عاشور . رحمه الله . فقد اختار الوقف على (عليهم) وأنها المفعول الثاني ، ولم يجز كون (هم العدو) مفعولا ثانيا وإنما جعله استئنافا ووجهه عدة توجيهات ، وهذا كلامه ، قال في (يحسبون كل صيحة عليهم) : (هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة (كأنهم خشب مسندة) أى من مخالفة باطنهم المشوه للظاهر المموه ، أى هم أهل جبن في صورة شجعان .

وهذا من جملة ما فضحته هذه السورة من دخائلهم ومطاوي نفوسهم كما تقدم في الآيات السابقة وإن اختلفت مواقعها من تقنن أساليب النظم فهي مشتركة في التنبيه على أسرارهم .

والصيحة : المرة من الصياح ، أى هم لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة لا يزالون يتوجسون خيفة من أن ينكشف أمرهم عند المسلمين فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة في خصومة ، أو أنشدت ضالة خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم للإيقاع بهم، و(كل) هنا مستعمل في معنى الأكثر لأنهم إنما يتوجسون خوفاً من صيحات لا يعلمون أسبابها .... وقوله : (عليهم) ظرف مستقر هو المفعول الثاني لفعل (يحسبون) وليس متعلقا بـ(صيحة) .

(هم العدو فاحذرهم) يجوز أن تكون استئنافاً بيانيا ناشئا عن جملة (يحسبون كل صيحة عليهم) لأن تلك الجملة لغرابة معناها تثير سؤالاً عن سبب هلعهم وتخوفهم من كل ما يتخيل منه بأس المسلمين ، فيجاب بأن ذلك لأنهم أعداء ألداء للمسلمين ، ينظرون للمسلمين بمرآة نفوسهم ، فكما هم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتمنعون الوقيعة بهم في حين يظهرون لهم المودة كذلك يظنون بالمسلمين التربص بهم ، وإضمار البطش بهم ويجوز أن تكون الجملة بمنزلة العلة لجملة (يحسبون كل صيحة عليهم) على هذا المعنى أيضا . ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا لذكر حالة من أحوالهم فهم المسلمين معرفتها فيترتب عليها تفريع واحذرهم وعلى كل التقارير فنظم الكلام واف بالغرض من فضح دخائلهم .

والتعريف في (العدو) تعريف الجنس الدال على معين كمال حقيقة العدو فيهم ، لأن أعدى الأعادي العدو المتظاهر بالموده وهو مداح وتحت ضلوعه الداء الدوى ، وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم . والعدو: اسم يقع على الواحد والجمع ، والمراد الحذر من الاغترار بظواهرها الخلابة ، لئلا يخلص المسلمون إليهم بسرهم ، ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد) (٦٧)

أبى العلامة ابن عاشور أن يجعل (هم العدو) مفعولا ثانيا ، وجعل (هم العدو) مقصورا به المنافقين كما يدا في توجيهاته . وراح ـ رحمه الله عليه يوجه موقع (هم العدو) فذكر ثلاثة توجيهات لا تخرج عن الإطار الذي أراه .فجعلها مفصولة عما قبلها لشبه كما الاتصال

[٦٨] (الاستئناف البياني) فهي جواب عن سؤال أثارته الجملة السابقة.

وهى علة لجملة (يحسبون) أى على حسبان كل صيحة عليهم ، أنهم العدو ، أو هى استئنافا ابتدائيا أى علاقة له بما قبله لذكر حالة من أحوال المنافقين تنبه المسلمين من خطرهم وقد تفرع عليها (فاحذرهم) . هكذا بنى كلامه على أن المقصود بالجملة وصف المنافقين بالعداوة ، حتى قال : (وعلى كل التقارير فنظم الكلام واف بالغرض من فضح دخائلهم) .

العلامة الرازي

وأخيرا نرى من أعلام المفسرين العلامة الرازي ينص على وجه واحد ، ولم يشر إلى الوجه الثاني حيث ساق كلامه على الوقوف على (عليهم) وجعل (هم العدو) استئنافا يبين أن المقصود بالعدو هم المنافقون ، قال . رحمة الله عليه . موضحاً تشبيههم بالخشب المسندة عاطفا بـ(ثم) الحديث عن هذه العبارة .

(والخشب لا تعقل ولا تفهم ، فكذلك أهل النفاق كأنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخشب ، وأما (المسندة) يقالب : سند إلى شئ أى مال إليه ، وأسنده إلى الشرع أى أماله فهو مسند ، والتشديد للمبالغة ، وإنما وصف الخشب بها لأنها تشبه الأشجار القائمة التي تنمو وتثمر بوجه ما ، ثم نسبهم إلى الجبن وعابهم به فقال : (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو)

وقال مقاتل: إذا نادى مناد في العسكر وانفلتت دابة ، أو نشدت ضالة مثلا ظنوا أنهم يرادون بذلك لما في قلوبهم من الرعب وذلك لأنهم على وجل من أن يهتك الله أستارهم ويكشف أسرارهم ، يتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة ، ثم أعلم الله رسول بعداوتهم ، فقال : (هم العدو فاحذرهم) أن تأمنهم على السر ، ولا تلتفت إلى ظاهرهم فإنهم الكاملون في العداوة بالنسبة إلى غيرهم). [٦٩]

هكذا بين العلامة الرازي ، أن (هم العدو) إعلام لرسول الله ﷺ بعداوة المنافقين ، وهي على هذا البيان لا تكون مفعولاً ثانياً لحسب بحال من الأحوال .

ما أميل إليه

وبعد هذه المحاورة والمناقشة لكلام العلماء في بيان التجاذب ، في العبارة القرآنية المباركة،

أقول : وضح من كلام العلماء أن (هم العدو) يتجاذبه ما قبله وما بعده ، غير أنني وإن كنت أرى وجود الدلالتين فإنني أميل إلى الرأى الذي قال : إن (هم العدو) يقصد به المنافقون ، أعنى بالوقف على (عليهم) والبدء بـ(هم العدو) وذلك أننا نستمد المعاني من السياق الحكيم وقد ذكر القائلون بهذا الرأى أدلة من السياق ، منها : الأمر (فاحذرهم) والترتيب المدلول عليه بالفاء العاطفة ، والضمير في (فاحذرهم) وأضيف أن سياق السورة الكريمة كله يؤيد بأن المراد بـ(هم العدو) المنافقون . وليس العدو الذي جاء يصبح عليهم عندما نقف عليها ونجعلها مفعولا ثانيا لحسب .

فمنذ بدأت السورة بدأت بذكرهم وذمهم وتكذيب شهادتهم (إذا جاءك المنافقون) الآية[٧٠] وكيف أنهم اتخذوا أيمانهم جنة للصد عن سبيل الله ، وأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم .

وتأتى الآية التي منها عبارة التجاذب منحرطة في السياق ذاته (وإذا رايتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) كناية عن حسن المظهر وسوء المخبر ، فظاهر خادع يعجب ولسانهم حلو يغري والحقيقة أن تحت ضلوعهم الداء الدوى ، ثم تشبيههم في الخواء وعدم الفائدة والفراغ ، من كل نفع بالخشب المسندة ، وقيل يقصد بها الأوثان المصنوعة من الخشب ،مسندة على الحوائط لا قيمة لها ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، ثم ما بعد الآية لمن تتدبر السورة مواصلة للحديث عنهم ، كل ذلك يقوي دلالة هذا الوجه من وجهي التجاذب في العبارة الكريمة .

ونورد أخيرا ما يؤيد ذلك من أن الوصف للمنافقين . ما ذكره الزمخشري ـ رحمه الله ـ في سبب نزول الآية وسر تشبيههم بالخشب المسندة ، قال ـ رحمه الله ـ : (كان عبد الله بن أبى رجلا جسيما صبيحا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ـ ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر، وفصاحة الألسن ، فكان النبي ـ ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم ، ويسمعون إلى كلامهم ، فإن قلت : ما معنى قوله : (كأنهم خشب مسندة ؟) قلت : أشبهوا في استنادهم ـ وما هم إلا أحرام خالية من الإيمان والخير ـ بالخشب المسندة إلى الحائط ، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار ، أو غيرهما من فطان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير

منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الانتفاع . ويجوز أن يراد بالخشب المسندة: الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم) [٧١]بذلك نرى سبب النزول وسياق الآية والسورة يؤيد هذا الوجه .

المبحث الخامس : التجاذب في (شهدنا)

قال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين).الأعراف:١٧٢

تلكم الآية المباركة من المشكل الذي كثر كلام المفسرين في تأويله ، وفي بيان كيفية أخذ الذرية من ظهور بني آدم وكيفية إشهادهم على أنفسهم بربوبية الله عز وجل لهم ، وكيف شهدوا بذلك لتكون هذه الشهادة حجة عليهم يوم القيامة وهل هذا على الحقيقة أم التمثيل[٧٢]الخ. ونظرنا هنا متسلط على موضع التجاذب المفهوم من سياق الآية الكريمة ، فسياق الآية بيان لحقيقة تقييم الحجة وتقر الدليل على بني آدم بان الله تعالى أشهدهم على ربوبيته وهم في عالم الذر ، أو دلهم بخلقه على توحيده الخ .. فشهد بنو آدم على أنفسهم بأحقية الله تعالى بالربوبية والتوحيد ، والتجاذب هنا في (شهدنا) فبالوقف على (بلى) يكون (شهدنا) ليس من كلام الذرية بل هو من كلام الله أو كلام الملائكة . لأن كلام الذرية انتهى عند قولهم : بلى رداً على النفي (ألست) فأقروا واعترفوا وأثبتوا أنه ربهم، أى بلى أنت ربنا . و(شهدنا) كلام مستأنف ليس من كلامهم . وتكون شهدنا مؤدية مع ما بعدها.

وبالوقف على (شهدنا) تكون من كلام الذرية ، أى بلى شهدنا أنك ربنا الحقيق بالعبارة والتوحيد، ويكون ما بعدها (أن تقولوا ...) من كلام الله او الملائكة أى فعلنا ما فعلنا أن تقولوا، أو لئلا تقولوا يوم القيامة أنكم كنتم في غفلة عن هذه الحقيقة ، فيكون الإشهاد لإقامة الحجة عليهم من أنفسهم ، وتكون (شهدنا) مؤدية مع ما قبلها .

هذا هو معنى التجاذب الذي نحاول بيانه واستيضاحه من خلال كلام العلماء والذين تعرضوا لهذا العطاء القرآني الفريد، وإليك ذلك :

الرازي والسمين

من الأئمة الذين وضح ببان التجاذب في هذا الموضع في كلامهم العلامة الرازي ، والعلامة السمين – رحمهما الله – : أما الأول فيقول : (أما قوله : شهدنا) ففيه قولان:

القول الأول : أنه من كلام الملائكة ، وذلك لأنهم لما قالوا بلى قال الله للملائكة

اشهدوا فقالوا شهدنا ، وعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله : (قالوا بلى) لأن كلام الذرية قد انقطع ههنا وقوله : (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) تقريره : أن الملائكة قالوا شهدنا عليهم بالإقرار لئلا يقولوا ما أقررنا فأسقط كلمة (لا) كما قال : (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)النحل : ١٥. يريد لئلا تميد بكم ، هذا قول الكوفيين ، وعند البصريين تقريره : شهدنا كراهة أن يقولوا .

والقول الثاني : أن قوله : (شهدنا) من بقية كلام الذرية ، وعلى هذا التقرير ، فقول: (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) متعلق بقوله : (وأشهدهم على أنفسهم) والتقدير : وأشهدهم على أنفسهم بكذا وكذا ، لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو كراهية أن يقولوا ذلك ، لأن قوله : (أن يقولوا) متعلق بما قبله وهو قوله : أن يقولوا أو تقولوا ، فقرأ أبو عمر بالياء جميعا ، لأن الذي تقدم من الكلام على الغيبة وهو قوله : (من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) لئلا يقولوا . وقرأ الباقون بالتاء ، لأنه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله : (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) وكلا الوجهين حسن، لأن الغائبين هم المخاطبون في المعنى)[٧٣].

هكذا وضح التجاذب في (شهدنا) في كلام العلامة الفخر الرازي . رحمه الله . رابطا ذلك بالوقف والابتداء فبالوقف على (بلى) يكون (شهدنا) ليس من كلام الذرية، لأن كلام الذرية انتهى عند (بلى) وبالوصل يكون (شهدنا) من كلامهم ، و(شهدنا) يتنازعها ما قبلها وما بعدها وتؤدي معهما معاً كأحسن ما يكون الأداء والسياق يقبل هذا وذاك .

– وأما الثاني (العلامة السمين) فقال : (قوله : (بلى) جواب لقوله : (ألست) ..... قوله : (شهدنا) هذا من كلام الله تعالى ، وقيل من كلام الملائكة ، وقيل من كلام الله تعالى والملائكة وقيل من كلام الذرية . قال الواحدي : وعلى هذا لا يحسن الوقف على قوله : (بلى) ولا يتعلق (أن تقولوا) بـ(شهدنا) ولكن بقوله : (وأشهدهم) قوله : (أن تقولوا) مفعول من أجله ، والعامل فيه : إما (شهدنا) أى: شهدنا كراهة أن تقولوا ، هذا تأويل البصريين ، وما الكوفيون فقاعدتهم تقدير (لا) النافية ، تقديره : لئلا تقولوا ، كقوله تعالى : (أن تميد بكم) النحل : ١٥.

وقول الآخر:

رأينا ما رأى البصراء فيها فآلينا عليها أن تباعا

أى : ألا تباع ، وأما (وأشهدهم) أى : أشهدهم لعلا تقولوا ، أو كراهة أن تقولوا . وقد تقدم أن الواحدي قد قال : إن (شهدنا) إذا كان من قول الذرية يتعين أن يتعلق (أن تقولوا) بـ(أشهدهم) كأنه رأى أن التركيب يصير : شهدنا أن نقول نحن . وهذا غير لازم لأن المعنى شهد بعضهم على بعض ، فبعض الذرية قال : شهدنا أن يقول البعض الآخر كذلك ، وذكر الجرحاني لبعضهم وجهاً أخر وهو أن يكون قوله : (وإذا أخذ ربك) إلى قوله : (قالوا بلى) تمام قصة الميثاق ، ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة، فقال تعالى : (شهدنا) بمعنى نشهد كما قال الخطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه .....

أى يشهد فيكون تأويله (يشهد أن تقولوا)

وقرأ أبو عمرو (يقولوا) في الموضعين بالغيبة جريا على الأسماء المتقدمة ، والباقون بالخطاب، وهذا واضح على قولنا إن)شهدنا) مسند لضمير الله تعالى . وقيل على قراءة الغيبة يتعلق (أن يقولوا) باشهدهم ، ويكون (قالوا شهدنا) معترضا بين الفعل وعلته ، والخطاب على الإلتفات فيكون الضميران لشئ واحد) [٧٤].

– وضح العلامة السمين ـ رحمه الله ـ أن (شهدنا) تحتمل أن تكون من كلام الذرية يعني تكون مرتبطة بما قبلها في المعنى ، وتحتمل أن تكون من كلام الله أو كلام الملائكة فترتبط بما بعدها وتنقطع عما قبلها وأشار إلى القراءات المتعلقة بأداء هذين المعنيين . مستأنسا بكلام العلامة الواحدي ـ رحمة الله عليه ـ [٧٥].

القرطبي والألوسي

أما الأول فقد فصل القول في التجاذب في هذا الموضع ، مبينا ما يترتب على ذلك من الوقف والابتداء ، وما جرى مع هذين المعنيين من القراءات .

قال ـ رحمه الله ـ : (أن يقولوا) أو (يقولوا) قرأ أبو عمرو بالياء فيهما ، ردهما على لفظ الغيبة المتكرر قبله ، وهو قول : (من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) وقوله : (قالوا بلى) أيضا لفظ غيبة ، وكذا (وكنا ذرية من بعدهم) (ولعلهم) محمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة ، وقرأ الباقون بالتاء فيهما ، ردوه على لفظ الخطاب المتقدم

في قوله : (ألست بربكم قالوا بلى) ويكون (شهدنا) من قول الملائكة ، لما قالوا : (بلى) قالت الملائكة : (شهدنا أن تقولوا) أو تقولوا أى لئلا تقولوا وقيل : معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى ، فأقروا له بالربوبية ، قال الله تعالى للملائكة : اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا وهذا قول مجاهد والضحاك والسدي.

وقال ابن عباس وأبى بن كعب قوله : (شهدنا) هو من قول بنى آدم ، والمعنى : شهدنا أنك ربنا وإلهنا ، وقال ابن عباس : أشهد بعضهم على بعض ، فالمعنى على هذا قالوا بلى شهد بعضنا على بعض ، فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على (بلى) ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بنى آدم ، لأن (أن) متعلقة بما قبل بلى من قوله: (وأشهدهم على أنفسهم) لشلا يقولوا .

وقد روى مجاهد عن ابن عمر أن النبي ـ ﷺ قال : (أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم ، قالوا : بلى ، قالت الملائكة : (شهدنا أن تقولوا) أى شهدنا عليكم بالإقرار بالربوبية لئلا تقولوا فهذا يدل على التاء . قال مكي : وهو الاختيار لصحة معناه ، ولأن الجماعة عليه وقد قيل : إن قوله (شهدنا) من قول الله تعالى والملائكة . والمعنى فشهد على إقراركم ، قال أبو مالك وروى عن السُّدي أيضا) .

هقد رأينا العلامة القرطبي فصل القول في ارتباط (شهدنا) بما قبله حيث يكون منه قول الذرية، أو انقطاعه عنه وارتباطه بما بعده ، حيث يكون من قول الله ، أو الملائكة ، وما يتصل بذلك من الوقف على (بلى) أو عدم الوقف ، وكيف بنيت آراء القراء على ذلك بين القراءة بالخطاب والغيبة في قوله : (أن تقولوا) أو (يقولوا) موضحا آراء العلماء توضيحاً شافياً .

وأما الثاني (العلامة الألوسي)- رحِّمه الله- فقد بنى قوله بالتجاذب على التوجيه الإعرابي وما يترتب عليه من القراءات فحيث يكون (أن تقولوا مفعولا لـ(شهدنا) تكون شهدنا مع ما بعدها وتقطع عما قبلها ، وعندما يكون ليس مفعولا لـ(شهدنا) تكون (شهدنا) مع ما قبلها ، أى : من كلام الذرية .

قال ـ رحمه الله ـ : (وجعلوا قوله ـ سبحانه وتعالى ـ : (أن تقولوا) من تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله ـ ﷺ إلي معاصريه من اليهود تشديدا في الإلزام أو إليهم وإلى

متقدميهم بطريق التغليب ، وهو مفعول له لما قبله من الأخذ والإشهاد ، أو لمقدر يدل عليه ذلك . والمعنى على ما يقول البصريون : فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا، وعلى ما يقول الكوفيون : لئلا تقولوا ، : لئلا تقولوا يوم القيامة عند ظهور الأمر واحاطة العذاب بمن أشرك إنا كنا عن هذا أى وحدانية الربوبية غافلين لم ننبه عليه ، وإنما لم يسعهم هذا الاعتذار حينئذ على ما قيل لأنهم نبهوا بنصب الأدلة وجعلوا متهيئين تهيؤا تاماً لتحقيق الحق وإنكار ذلك مكابرة فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك)[٧٦].

هنا ذكر أحد الوجهين بجعل (أن تقولوا) مفعولا لما قبله من الأخذ والإشهاد . وحينئذ يكون الوقف على (بلى) وشهدنا مع ما بعده الذي هو مفعول له. وذكر الوجه الثاني ووضح التجاذب في الوجهين في قوله : (أجاب بعضهم بان قوله تعالى : (أن تقولوا) ليس مفعولا لقوله تعالى : (وأشهدهم) وما يتفرع عليه من قولهم : (بلى شهدنا) حتى يجب كون ذلك الإشهاد والشهادة محفوظا لهم في إلزامهم ، بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام ، والمعنى فعلنا ما فعلنا من الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه في دار التكيف وإلا لعملنا بموجبه . هذا على قراءة الجمهور ، أما على القراءة الأخرى فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل في (إذا أخذ) والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه، أو بتقليد الآباء .

ثم قال : هذا على تقدير كون (شهدنا) من كلام الذرية وهو الظاهر ، فأما على تقدير كونه من كلام الله تعالى فهو العامل في (أن تقولوا) ولا محذور أصلا ، والمعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ ... لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ) [٧٧].

الشهاب وأبو السعود والجزي

ثلاثتهم ـ بينوا التجاذب في هذا الموضع وبهم ننهي الحديث فيه مكتفين بما عرضناه من كلام العلماء .

ـ أما الأول فقد بين التجاذب من خلال كلامه عن ، أن (شهدنا) من كلام الله ، أو من كلام الذرية مؤسسا كلامه على التوجيه الإعرابي من جهة ، والقراءات الواردة في الآية من جهةأخرى، قال ـ رحمه الله ـ :

(وقوله : (شهدنا) من كلام الله ، فضمير (نا) لله ، أو من كلام الذرية ، قوله : (كراهة أن تقولوا) هذا تأويل البصريين في مثله ، والكوفيون يقررون فيه (لا) النافية أى لئلا تقولوا ، أي هو مفعول لأجله ، وعامله (أشهدهم) أو مقدر يدل عليه ، وقوله: (لم ننبه) بصيغة المجهول تفسير للغفلة .

وقراءة أبي عمر بالغيبة لقوله : (أشهدهم) وقراءة الخطاب لهم ، لقوله : (ربكم) (٧٨).

هكذا بين في صدر كلامه أن (شهدنا) من كلام الله ، أو من كلام الذرية ، وعلى الأول متكون مقطوعة عما قبلها ، وعلى الثاني تكون موصولة بما قبلها وتكون من تتمة كلام الذرية والمعنيات محتملات كما فهمنا .

. وأما العلامة أبو السعود . رحمه الله . فقد وضح أن (شهدنا) محتملة أن تكون من كلام الذرية فتكون الذرية هي التي قالت: (بلى شهدنا) وتكون شهدنا مع ما قبلها.

ومحتملة أن تكون من كلام الله ويكون كلام الذرية منتهياً عند (بلى) وتكون (شهدنا) مع ما بعدها . بانياً كلامه كذلك على ما جاء من توجيه إعرابي وعلى ما جاء من قراءات، وعليهما بتأسس معنى المصطلح البلاغي (التجاذب) في هذا الموضع .

قال : (قالوا بلى شهدنا) أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك كما ورد في الحديث الشريف ، وهذا تمثيل لخلقه تعالى إياهم جميعا في مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس المؤدية إلى التوحيد والإسلام ... وقوله: (أن تقولوا) بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله ﷺ إلى معاصريه من اليهود تشديدا في الإلزام أو إليهم وإلى متقدميهم بطريق التغليب لكن لا من حيث إنهم مخاطبون بقوله تعالى : (ألست بربكم) فإنه ليس من الكلام المحكي ، وقرئ بالياء على أن الضمير للذرية ، وأياً ما كان فهو مفعول له لما قبله من الأخذ والإشهاد أى فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم (يوم القيامة) أو عند ظهور الأمر (إنا كنا عن هذا) عن وحدانية الربوبية وأحكامها (غافلين) لم ننبه عليه) (٧٩).

ثم يواصل كلامه موضحاً أن (شهدنا) من كلام الذرية أو من كل الله فيقول : (قوله تعالى : (أن تقولوا الخ ...) ليس مفعولا له لقوله تعالى (وأشهدهم) وما يتفرع عليه . من قوله : (بلى شهدنا) حتى يجب كون ذلك الإشهاد والشهادة محفوظاً لهم في إلزامهم بل

لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام ، والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه في دار التكليف وإلا لعملنا بموجبه ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل في إذ أخذ ، والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء ، هذا على تقدير كون قوله تعالى: (شهدنا) من كلام الذرية وهو الظاهر ، فأما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل في (أن تقولوا) ولا محذور أصلا إذ المعنى : شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ .. لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ) (٨٠).

كما رأينا العلامة أبا السعود قد فصل القول في أن (شهدنا) من كلام الذرية أو من كلام الله تعالى ، وقد مال في كلامه إلى ربط (شهدنا) بما قبلها وأنها من كلام الذرية لما قال : (هذا على تقدير قوله تعالى : (شهدنا من كلام الذرية وهو الظاهر)

ـ وأما العلامة الجزي ـ رحمه الله ـ فقد وضح في كلامه كون (شهدنا) من كلام الذرية فتكون مع ما قبلها ، وكذا قد تكون من كلام الله والملائكة وهذا كلامه : (قولهم : (بلى) بعد التقرير تقتضي الإثبات ، بخلاف (نعم) فإنها إذا وردت بعد الاستفهام تقتضي الإيجاب ، وإذا وردت بعد التقرير تقتضي النفي ، ولذلك قال ابن عباس في هذه الآية ، لو قالوا نعم لكفروا ، وأما قولهم : (شهدنا) فمعناه شهدنا بربوبيتك فهو تحقيق لربوبية الله وأداء لشهادتهم بذلك عند الله ، وقيل : إن (شهدنا) من قول الله والملائكة أى شهدنا على بنى آدم باعترافهم (ان تقولوا يوم القيامة) في موضع مفعول من أجله، أى فعلنا ذلك كراهية أن تقولوا فهو من قول الله لا من قولهم، وقرئ بالتاء على الخطاب لبني آدم ، وبالياء على الإخبار عنهم) (٨١).

المبحث السادس : التجاذب في (الذين آتيناهم الكتاب)

قال تعالى : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون). [٨٢] البقرة : ١٤٥ ، ١٤٦.

هذا الموضع من المواضع التي ذكرها العلامة الألوسي مستدركا على العلامة الشهاب لما قال بعد ذكر التجاذب في موضع سورة يس : (ولم أجد له مثالاً غير هذا) [٨٣]

قال الألوسي : نقلاً عن صاحب إيجاز البيان : (ومثله ... (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه الآية) بعد قوله تعالى : (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين)[٨٤]

جاءت الآيتان الكريمتان في سياق الحديث عن تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام . وهما قاطعتان لكل رجاء يؤمل في أهل الكتاب ، فمهما أتيتهم بكل آية تدل على صدقك وأحقية قبلتك بالإتباع فلن يتبعوا قبلتك ولأنهم ليسوا على حق فلن تتبع أنت يا محمد كذلك قبلتهم ، وهم فيما بينهم مشتتون مفرقون ليسوا على طريق واحد (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) ثم يأتي هذا التحذير الذي تعلوا فيه سطوة الألوهية تثبيتا لرسول الله ﷺ وربطا على قلبه (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين) وتأتي الآية الثانية : لتبين علم هؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب إنهم يعرفون رسول الله ، أو يعرفون العلم ، أو القرآن ، أو التحويل . كما يعرفون أبناءهم ، ومن هؤلاء الجاحدين المعاندين فريق يكتمون الحق وهم يعلمون .

وإذا أردنا أن نتناول موضع التجاذب بالدراسة فإننا نقول : هذا الموضع لم يأت كلام المفسرين فيه واضحا كغيره من المواضع الأخرى التي درسناها بل انصرف اهتمامهم إلى معرفة ما يعود إليه الضمير في قوله (يعرفونه) بين قائل إنه يعود إلى الرسول ﷺ مع أنه لم يسبق ذكره في الكلام ولكن السياق يدل عليه ، في قوله بعده (كما يعرفون أبناءهم) وبين قائل : إنه مذكور قبله وقد جرى الكلام على توجيه الخطاب له في الآيات السابقة (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوليك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام...) [٨٥]

وبين قائل : إن الضمير عائد إلى العلم ، أى يعرفون العلم ، أو إلى القرآن ، وبين قائل: الضمير عائد إلى تحويل القبلة ، أى يعلمون التحويل . أما ذكر التجاذب فقد جاء عرَضا غير مفصل في كلامهم ولكننا بالتأمل والتتبع وجدناه عند طائفة منهم على ما سنذكر بعد قليل .

وموضع التجاذب هنا في قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب) .

فإذا جعلنا (الذين آتيناهم الكتاب) بدلا من الظالمين كانت مرتبطة في المعنى بما قبلها، فالذين آتيناهم الكتاب هم الظالمون .

وقد نقطع (الذين آتيناهم...) عما قبلها ، ونبدأ بها على أنها كلام مستأنف (الذين) مبتدأ ... وبهذا تكون مرتبطة بما بعدها في المعنى ، والوجهان يقبلهما السياق الحكيم ، وهذا هوالتجاذب.

والآن نحاول استبيان ذلك في كلام العلماء الذين جاء في كلامهم ذلك غير مفصل كما في المواضع الأخرى .

العلامة الألوسي

قدمنا أن العلامة الألوسي هو الذي ذكر هذا المثال للتجاذب مستدركاً على الشهاب الخفاجي في حديثهما عن التجاذب في موضع سورة يس (من بعثنا من مرقدنا هذا)

وكان المنتظر أن نرى حديثه عن التجاذب في هذا الموضع من سورة البقرة واضحا مفصلاً ، لاسيما أنه هو الذي ذكر هذا المثال ، غير أنه جرى في كلامه جريا غير مباشر وغير مفصل حيث ذكر في (الذين) وجهين :

الاستئناف ، او أنها بدل من (الظالمين) أو من الموصول الأول ، وسنبدأ كلامه من أول حديثه عن الكلمة التي تتعلق بالتجاذب : (إنك إذا لمن الظالمين) قال . رحمه الله : (أى المرتكبين الظلم الفاحش ، وهذه الجملة أيضا تقرير لأمر (القبلة) وفيها وجوه من التأكيد والمبالغة ، وهي : القسم ، واللام الموطئه له ، وإن الفرضية ، وإن التحقيقية ، واللام في حيزها ، وتعريف الظالمين ، والجملة الاسمية ، وإذا الجزائية ، وإيثار (من الظالمين) على ظالم أو الظالم لإفادته أنه مقرر محقق ، وأنه معدود في زمرتهم عريق فيهم. وإيقاع الاتباع على ما سماه هوى ، أى لا يعضده ، برهان ولا نزل في شأنه بيان ، والإجمال

والتفصيل ، وجعل الجائي نفس العلم ، وعد أيضا من ذلك عده واحدا (من الظالمين) مغموراً فيهم غير متعين كتعينهم فيما بين المسلمين ، فإن فيه مبالغة عظيمة للإشعار بالانتقال من مرتبة العدل إلى الظلم ، ومن مرتبة التعين والسيادة المطلقة إلى السفالة والمجهولية ، ولو جعل كنت في (كنت عليها) بمعنى صرت لكان أعلى كعبا في الإفادة . وأنت تعلم أن التركيب يقتضي المبالغة في الاستعمال لا المجهولية ، ولو اقتضاها فيه لكان العد معدوداً في عداد المقبول ، وفي هذه المبالغات تعظيم لأمر الحق وتحريض على اقتفائه وتحذير عن متابعة الهوى ، واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء وذو المرتبة الرفيعة إلى تجديد الإنذار عليه أحوج حفظا لمرتبته ، وصيانة لمكانته ، فلا حاجة إلى القول بأن الخطاب للنبي والمعني به غيره . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) مبتدأ وخبر ، والمراد بهم العلماء لأن . العرفان . لهم حقيقة ، ولذا وضع المظهر موضع المضمر ، ولأن . أوتوا . يستعمل فيمن لم يكن له قبول ، و . آتينا . أكثر ما جاء فيمن له ذلك . وجوز أن يكون الموصول بدلاً من الموصول الأول ، أو (لمن الظالمين) فتكون الجملة حالا من الكتاب أو من الموصول . ويجوز أن يكون نصباً باعني ، أو رفعا على تقدير (هم) [٨٦].

– هكذا بعد أن وقف العلامة الألوسي مع : (إنك إذن لمن الظالمين) وما تحمله من التوكيد وبيان الغرض الذي من أجله جاءت بهذه القوة ، استرسل ووقف مع موضع التجاذب دون أن يصرح به ، فجعل (الذين آتيناهم الكتاب يعرفون) مبدءا وخبرا .

وهذا يعني أنه قطع العبارة عما قبلها ، وجعلها كلاما مستأنفا وعليه تكون (الذين) مع ما بعدها ولا تعلق لها بما قبلها (الظالمين) وعلى هذا يكون المراد بـ(الذين) العلماء ، وعلل لذلك ، يوضع المظهر (الذين) موضع الضمير ، ولم يقل ، هم آتيناهم ليظهر أن (الذين) استئناف . وكذلك تلك اللطيفة التي ذكرها في أن (أوتوا) يستعمل فيمن لم يكن له قبول ، و(آتينا) فيمن له قبول . والتعبير هنا بـ(آتينا) وهذا يعني أنا لمقصود بـ(الذين) العلماء ، لا الظالمين .

ثم عاد وذكر الوجه الثاني للتجاذب ، حيث جعل (الذين) بدلا من الموصول الأول ، وهو (الذين) في قوله : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) أو بدلا من (الظالمين) أو منصوبة بـ(أعني) أو مرفوعة على تقدير (هم) وجعل (الذين) بدلا من الظالمين أو منصوبة بفعل محذوف ، أو مرفوعة على تقدير مبتدأ كل ذلك يجعل (الذين) مرتبطة بما

قبلها ، ويكون المعنى أن الذين أوتوا الكتاب هم عين الظالمين .

وعلى التقديرين يتضح التجاذب في (الذين ...) فقد يقصد بهم الظالمون ، أو العلماء على التوجهين .

العلامة السمين

ومن العلماء الذين أشاروا إلى التجاذب في هذا الموضع العلامة السمين . رحمه الله . فقد جاء في طي كلامه في التوجيه الإعرابي لموقع (الذين آتيناهم) فحيث ربطها بما قبلها في الإعراب كانت معه ، وحيث قطعها وجعلها ابتداء كانت مع ما بعدها ، إذ الإعراب فرع المعنى كما يقول أهل العلم . وهذا كلامه :

(قوله تعالى : (الذين آتيناهم) فيه ست أوجه ، أظهرها أنها مرفوع بالابتداء والخبر قوله(يعرفونه)

والثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى : هم الذين آتيناهم .

الثالث : النصب بإضمار أعنى. الرابع : الجر على البدل من الظالمين .

الخامس : الصفة للظالمين. السادس : النصب على البدل من (الذين أوتوا الكتاب) في الآية قبلها) . [٨٧]

واضح في كلام العلامة السمين أن (الذين) تعرب مبتدأ ، وخبراً لمبتدأ محذوف ، ومفعولا به لفعل مقدر مع فاعله . وهذا أحد الوجهين إذ إنها بذلك تقطع عما قبلها ، وتكون كلاماً جديداً وتعرب بدلاً من الظالمين أو صفة وهذا ثاني الوجهين إذ إنها بذلك تربط في المعنى بما قبلها

أبوحيان

ذكر العلامة أبو حيان . رحمة الله عليه . وجهي الإعراب الدالين على اختلاف المعنى المراد من (الذين آتيناهم) وجعلها تبعا لذلك مع ما قبلها في حالة الوصل ، ومع ما بعدها في حالة القطع والاستئناف ، وقد وضح أولاً المراد بـ(الذين آتيناهم الكتاب) ثم استطرد فذكر التجاذب على النحو الذي أشرنا إليه .

قال : (الذين آتيناهم الكتاب . اليهود والنصارى ، أو من آمن برسول الله . ﷺ . من اليهود كابن سلام وغيره ، أو من آمن به مطلقاً ، أقوال .

والكتاب : التوراة أو الإنجيل ، أو مجموعهما ، أو القرآن . أقوال تنبني على مَن المراد بالذين آتيناهم ، ولفظ آتيناهم أبلغ من أوتوا ، لإسناد الإيتاء إلى الله تعالى معبراً عنه بنون العظمة ، وكذا ما يجئ من نحو هذا مرادا به الإكرام ، نحو : هدينا ، واجتنبينا واصطفينا . قيل ولأنّ أوتوا قد يستعمل فيما لم يكن له قبول ، وآتيناهم أكثر ما يستعمل فيما له قبول، نحو : (الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) وإذا أريد بالكتاب أكثر من واحد فوجد ، لأنه صرف إلى المكتوب المعبر عنه بالمصدر .

(يعرفونه) جملة في موضع الخبر عن المبتدأ الذي هو :

(الذين آتيناهم) وجوز ان يكون الذين مجروراً على أنه صفة للظالمين ، أو على أنه بدل من الظالمين ، أو على أنه بدل من الذين أوتوا الكتاب) في الآية التي قبلها ، ومرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، ومنصوباً على إضمار أعنى...)[٨٨].

في ثنايا هذا الكلام المفصل الدقيق الواضح جاء ذكر وجهي التجاذب في (الذين آتيناهم) ترتيبا على تغاير الإعراب ، حيث ذكر ـ رحمه الله ـ أن (الذين آتيناهم) مبتدأ خبره (يعرفونه) أو هو مرفوع كذلك على حذف الخبر أو منصوباً على تقدير (أعني) وهذه الإعرابات تدل على وجه القطع والاستئناف . أما الإعراب الثاني الدال على وجه الوصل والربط بما قبلها فهو جعل الذين آتيناهم بدلا من الظالمين أو صفة من الظالمين ، والمعنيان متغايران والسياق يقبلهما معاً .

ابن عطية والقرطبي

ومن العلماء الذين وجهوا الإعراب في (الذين) توجهين ينبني عليهما وجها التجاذب العلامة ابن عطيه والعلامة القرطبي ـ رحمهما الله ـ .

– أما العلامة ابن عطيه فيقول : (الذين ، في موضع رفع بالابتداء ، والخبر (يعرفونه) ويصح أن يكون في موضع حفض نعتا للظالمين ، (ويعرفونه) في موضع الحال) [٨٩]. يتضح إذن أن (الذين) في موضع رفع بالابتداء ، تكون مقطوعة عما قبلها ، وفي موضع خفض نعتا للظالمين تكون مع ما قبلها .

– وأما العلامة القرطبي فيقول كلاما شبيها بكلام ابن عطية يقول : (قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) (الذين) في موضع رفع بالابتداء ،

والخبر (يعرفونه) ويصح أن يكون في موضع حفض على الصفة لـ(الظالمين) ، و(يعرفون) في موضع الحال ، أى يعرفون نبوته وصدق رسالته ، والضمير عائد على محمد ﷺ قال مجاهد وقتادة وغيرهما ، وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق ، قاله ابن عباس وابن جريج والربيع وقتادة أيضا) [٩٠].

ـ نعم.. لم يشر القرطبي وابن عطية إلى التجاذب كمصطلح ، ولا إلى الدلالة المعنوية المترتبة على هذا التوجيه الإعرابي ، لكن دلالة التجاذب قائمة على هذا التوجيه وما يتعلق به من الوقف والوصل هذا ما استطعت أن أتوصل إليه من كلا علماء التفسير في هذا الموضع وجلهم كما أشرت في صدر الحديث عن هذا الموضع مشغول بعودة الضمير في (يعرفونه)

العلامة الزَّجَّاج

وقد نجد من يشير إلى وجه إعرابي واحد ، ولا يشير إلى الوجه الثاني الدال على التجاذب ، مما يدل على تأييده لأحد المعنيين دون الآخر ، وهذا ما رأيته في كلام العلامة الزجاج ـ رحمه الله ـ وهو كذلك مشغول بعودة الضمير في (يعرفونه)

قال : و (الذين ، رفع بالابتداء ، وخبر (الذين) ، (يعرفونه) وفي(يعرفونه) قولان : قال بعضهم : يعرفون أن أمر القبلة وتحول النبي ﷺ من قبل بيت المقدس إلى البيت الحرام حق كما يعرفون أبناءهم) [٩١].

– وبهذا القدر اكتفى إذ الدراسة لا تتسع لأكثر من ذلك ، وهناك مواضع تحتاج إلى النظر والتأمل والتتبع .

منها : قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) [٩٢]

بالوقف على (الله)والبدء (والراسخون) أو وعطف (والراسخون) على لفظ الجلالة ، على اختلاف القراءات في ذلك .

ومنها : (فأصبح من النادمين من أجل ذلك) [٩٣]

بالوقف على (النادمين) أو وصلها بـ(من أجل ذلك) .

ومنها قوله تعالى : (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) [٩٤]

بالوقف على (محرمة عليهم) والابتداء بـ(أربعين سنة) أو بالوصل(محرمة عليهم أربعين

سنة) ومنها :((كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة)[٩٥] بالوقف على (لعلكم تتفكرون) والبدء بها مع ما بعدها .

كل ذلك يترتب عليه تغاير في المعنى واختلاف في الدلالة مما يحتاج إلى نظر عميق ، وتتبع دقيق ، ودراسة مستفيضة تجد وتجتهد في جمع شتات ذلكم النمط الفريد في الذكر الحكيم ، وحسبنا أننا دللنا على الطريق .

الخـــاتمـــة

الحمد لله القائل : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون) [٩٦] وأصلى وأسلم على النبي المصطفى والرسول المجتبى وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان .

وبعد ...

فإنها لعشرة حميدة عايشتها مع كتاب الله العزيز حتى قلت : إن كان للأرواح متاع في الحياة الدنيا فإن أسمى متاعها أن تعيش في رياض كتاب الله تأملاً وتدبراً ودرسا ، تجني من ثماره ، وتقطف من أزهاره ، وتغترف من معينه الذي لا ينضب .

وقد تأملت هذا النمط الفريد وذلكم الباب العالي والفن العجيب في كتاب الله (التجاذب) فتمخض هذا التأمل عن أمور منها :

- أنني لم أعرف واحدا من البلاغيين ولا من المفسرين ذكر هذا المصطلح (التجاذب) إلا العلامة الشهاب الخفاجي ، والعلامة الألوسي ـ رحمه الله ـ في موضع واحد ، ذلك عند تفسيرهما لقوله تعالى : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) [٩٧] ولم أجد له ذكرا بعد ذلك عندهم ولا عند غيرهما .

- ظهر معنى هذا الفن (التجاذب) واتضحت دلالته ودوره في السياق القرآني عند كثير من المفسرين دون أن يجري هذا المصطلح على ألسنتهم ، ولعل مردّ ذلك إلى أنهم لم يعرفوا هذا المصطلح وإن كانت دلالته البلاغية لم تغب عنه .

- القول بالتجاذب ينبنى على أمرين لابد منهما ولا ينفك أحدهما عن الآخر .

الأول : يتعلق بعلم القراءات إذ القول بالتجاذب واختلاف الدلالة لا يكون إلا باختلاف الوقف والوصل .

الثاني : يتعلق بعلم النحو إذ القول به لا ينفك عن التوجيه الإعرابي حيث تأتي الدلالة

بعد بيان الوجه الإعرابي .

ثم يتمخض عن هذين الأمرين البحث في سر اختلاف الدلالة ، ودور السياق في بيان اختلاف المعنى باختلاف الوصل والوقف ، وتغايره بتغاير الوجه الإعرابي .

– كشفت الدراسة كيف أن الكلمة أو العبارة الواحدة في كتاب الله لها دلالتان لا يلفظ السياق واحدة منهما ، بل إنك قد تقف حائرا أن تجعلها مع ما قبلها أو مع ما بعدها ، ولا تملك أمام هذا البيان القاهر لكل بيان إلا أن تجعلها معهما على قدر واحد.

. آمل أن تهدى هذه لدراسة الضئيلة إلى باب واسع من البحث في القرآن لكريم ، وربما في السنة النبوية ، ثم في التراث العربي شعره ونثره ، وإن تطلب ذلك طول نفس وإدمان نظر ولا يطوع شئ من ذلك إلا لمن صبر وصابر.

اللهم إنا قد حططنا رحالنا على ببابك خدما لكتابك فاقبلنا في رحابك واكتب لنا القبول عند أهل الفضل من علمائنا الأكارم ، واجعل ما تخطه أيدينا شاهداً لنا لا علينا يوم نأتيك فرادي . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله .

فهرس المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم .

(٢)الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مراجعة سعيد المندور ، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

(٣)إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري ، تحقيق جنيف بن حصن القاسمي دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط الأولى : ١٤١هـ

(٤) الإيضاح ضمن شروح التلخيص ، للخطيب القزويني ، دار السرور ، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ

(٥) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى :١٣٦١هـ . ١٩٥٠م .

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور . الدار التونسية للنشر ، تونس بتاريخ ١٩٨٤ .

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ، تحقيق محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى :١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

(٨) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، بدون تاريخ .

(٩) تفسير البيضاوي ضمن حاشية الشهاب : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى :١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

(١٠) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي. دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠ هـ .

(١١) التفسير الوسيط للواحدي ، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ على محمد معوض ، د. احمد محمد صيرة د. عبد الغني الجمل د. عبد الرحمن عويس قدم له : د. عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .

(١٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، تحقيق أحمد البردوني ، وابراهيم أطفيش دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية : ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

(١٣) حاشية ابن المنير على الكشاف : دار الكتاب العربي بيروت ط : ٣ . ١٤٠٧هـ.

(١٤) حاشية الجمل ، مطبعة فيصل الحلبي ، دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخٍ .

(١٥) حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي ' دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى :١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

(١٦) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين ، أبو العباس شهاب الدين بن يوسف عبد الدايم المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط ، دار دمشق بدون تاريخ . ويراجع تفسير أبو السعود ، دار إحياء التراث العربي بيروت . بدون تاريخ .

(١٧) روح المعاني للألوسي . تحقيق على عبد الباري عطيه ط الأولى ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية بيروت .

(١٨) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، تحقيق الشيخ زكريا عميران ، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى : ١٤١٦ هـ .

(١٩) فتح القدير الشوكاني دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، دمشق بيروت . ط الأولى ١٤١٤هـ

(٢٠) تفسير الكشاف ، دار الكتاب العربي بيروت ط : ٣ . ١٤٠٧هـ .
(٢١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية . تحقيق عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، دار الكتاب الإسلامي ، الطبعة الثانية بدون تاريخ .
(٢٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، الناشر عالم الكتب بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨م .
(٢٣) مواهب الفتاح للمغربي ، ضمن الشروح ، دار السرور ، بيروت – لبنان ، بدون تاريخ.
(٢٤) النشر في القراءات العشر ، تحقيق محمد الضباع المطبعة التجارية الكبرى، تصدير دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ.
(٢٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة، بدون تاريخ .

الهوامش والإحالات :

١. سورة يس: ٥٣ .
٢. حاشية الشهاب : ٣٢/٨ .
٣. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها : ١٥٥ .
٤. إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري ، تحقيق جنيف بن حصن القاسمي دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط الأولى : ١٤١هـ
٥. البقرة : ١٤٦
٦. البقرة : ١٤٥
٧. البقرة : ٢
٨. روح المعاني للألوسي : ٣٢/١٢ ، ٣٣ .
٩. النشر في القراءات العشر : ٢٢٥/١ .
١٠. آل عمران : ٧
١١.)النشر في القراءات العشر لابن الجزري : ٢٣٨/١ والآية : ٣٢ المائدة
١٢. يراجع الاتقان في علوم القرآن : ٢٢١/١ . ٢٣٣ .
١٣. تفسير البيضاوي ضمن حاشية الشهاب : ٣١/٨ ، ٣٢ .
١٤. حاشية الشهاب : ٣٢/٨ . والأسلوب الحكيم هو : (تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره على أنه الأولى بحاله أو المهم له) الإيضاح ضمن الشروح: ٤٧٩/١ .
١٥. السكتة اللطيفة عبارة عن قطع الصوت زمنا هو دون الوقف عادة من غير تنفس ... وقال مكي : سكتة خفيفة .... وقال الداني : سكتة لطيفة : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٢٣٤/١ .

١٦. الدر المصون :٢٧٦/٩.
١٧. البقرة : ١٤٦ ، الأنعام : ٢٠ .
١٨. البقرة : ١٤٥ .
١٩. البقرة : ٢
٢٠. روح المعاني : ٣٢/١٢ ، ٣٣ .

٢١. الكشاف : ٤ /٢١ .
٢٢. التفسير الكبير : ٢٩٢/٢٦ .
٢٣. الدر المصون : ٢٧٦/٩ .
٢٤. الجامع لأحكام القرآن : ٤٢/١٥ .
٢٥. تفسير أبي السعود : ١٧٢/٧ .
٢٦. معاني القرآن وإعرابه للزجاج :٢٩١/٤ .
٢٧. يراجع التسهيل لابن جزي : ٢٢٦/٢ .
٢٨. يراجع حاشية الجمل على الجلالين : ٥١٩/٣ .
٢٩. نظم الدر : ٣٣/١ .
٣٠. الفتوحات الإلهيه : ١١/١ .
٣١. الإيضاح ومواهب الفتاح ضمن الشروح : ٣١٧/١ .
٣٢. حاشية الشهاب : ٢٨٥/١.
٣٣. البقرة : ٢٣ ٠
٣٤. حاشية الشهاب على البيضاوي : ٢٩١/١ ، ٢٩٢ .
٣٥. حاشية الشهاب : ٢٩٢/١ .
٣٦. حاشية الجمل : ١١/١
٣٧. السابق الجزء والصفحة
٣٨. التسهيل : ٥٠/١
٣٩. الكشاف : ٨٧/١ ـ ٨٩
٤٠. حاشية ابن المنير على الكشاف : ٨/١ ، ٨٩ .
٤١. الجامع لأحكما القرآن م ١ ط١ /١٢٢ .
٤٢. تفسير البيضاوي ضمن حاشية الشهاب : ٣١١/١ ، ٣١٢ .
٤٣. حاشية الشهاب : ٣١٢/١ .
٤٤. البقرة : ١٨٥
٤٥. تفسير البيضاوي : ٢٩٩/١ ـ ٣٠٤ .
٤٦. حاشية الشهاب : ٣٠٤/١ .
٤٧. النحل : ٣ ، ٤
٤٨. النحل: ٦ ، ٧
٤٩. تفسير البيضاوي : ٥٥١/٥ .
٥٠. حاشية الشهاب على البيضاوي : ٥ / ٥٥١ .
٥١. روح المعاني للألوسي : ٣٤١/٧ ، ٣٤٢ .
٥٢. التسهيل لعلوم التنزيل : ٤٥٨/١ .

٥٣. غرائب القرآن ورغائب الفرقان :٤/٢٤٠.
٥٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين : ٧/١٩١.
٥٥. حاشية الجمل : ٢١/٥٥٨ .
٥٦. تفسير الكشاف : ٢/٥٩٣ .
٥٧. فتح القدير الشوكاني : ٣/١٧٨ دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، دمشق بيروت . ط الأولى ١٤١٤هـ.
٥٨. التحرير والتنوير لابن عاشور : ١٤/١٠٤ .
٥٩. نظم الدرر للبقاعي : ١١/١٠٨ .
٦٠. تفسير البيضاوي :٩/١٨٠ ، ١٨١ . ضمن حاشية الشهاب .
٦١. حاشية الشهاب على البيضاوي : ٩/١٨١ .
٦٢. الكشاف : ٤/٥١٤ .
٦٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ١٠/٣٣٩ . ويراجع الفتوحات لإلهية للجمل : ٤/٣٤٦ ، ٣٤٧ .
٦٤. الجامع لأحكام القرآن الكريم : ١٨/١٢٦ .
٦٥. روح المعاني : ١٤/٣٠٦ .
٦٦. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٨/٢٥٢ .
٦٧. التحرير والتنوير : ٢٨/٢٤٢،٢٤١
٦٨. أن تكون الجملة الثانية جوبا عن سال اقتضته الأولى فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال) الايضاح ضمن الشروح : ٣/٥٣ .
٦٩. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي : ٣٠/٥٤٧ .
٧٠. المنافقون : ١ .
٧١. الكشاف : ٤/٥٤٠ .
٧٢. نكتفي هنا بما ذكره العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ عارضا الآراء الواردة فيها قال :
٧٣. (فيه ست مسائل : الأولى قوله تعالى : (وإذا أخذ ربك) أى واذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذت من المواثيق من العباد يوم الذر ، وهذه آية مشكلة وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها ، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه . فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض. قالوا : معنى (أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) دلهم بخلقه على توحيده لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحداً (ألست بربكم) أى قال ، فقام ذلك مقام الأشهاد عليهم والإقرار منهم . كما قال تعالى في السماوات والأرض : (قالتا أتينا طائعين) فصلت : ١١.
٧٤. (ذهب إلى هذا القفال وأطنب .
٧٥. وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها . قلت : وفي الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير هذين القولين ، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم ـ عليه السلام ـ وروى مالك في موطئه أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سئل عن هذه الآية (وإذا أخذ ربك من بني آدم . الآية) فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل عنها فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :
٧٦. (إن الله تعالى خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . فقال رجل : ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
٧٧. إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار قال

أبو عمر هذا حديث منقطع الإسناد. لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر ، وقال : فيه يحيى بن معين : مسلم بن يسار لا يعرف بينه وبين عمر نعيم بن ربيعة ، ذكره السائل ، ونعيم غير معروف بحمل العلم ، لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وعبد الله بن مسعود، وعلى بن أبي طالب ، وأبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين .... وروى عبد الله بن عمرو وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :

٧٨. (أُخِذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس) وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم ، وأن لا إله غيره فأقروا بذلك والتزموه وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل . فشهد بعضهم على بعض ، قال أبي بن كعب : وأشهد عليهم السماوات السبع ، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد) نكتفي بهذا من كلام العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ ليكون بيانا لبعض ما قيل في هذهالآيةالكريمة .الجامع لأحكام القرآن:٣١٤.٣١٦ .

٧٩. التفسير الكبير : ٤٠٢/١٥ .
٨٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٥١٢/٥ ـ ٥١٤ .
٨١. يراجع التفسير الوسيط للواحدي : ٤٢٦/٢ .
٨٢. روح المعاني : ٩٦/٥ .
٨٣. السابق : ٩٨/٥ .
٨٤. حاشية الشهاب على البيضاوي : ٤٠٠/٤ .
٨٥. تفسير أبي السعود : ٢٩٠/٣ .
٨٦. السابق : ٢٩١/٣ .
٨٧. التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٢٨/١ .
٨٨. حاشية الشهاب : ٣٢/٨ .
٨٩. روح المعاني : ٣٢/١٢ .
٩٠. البقرة : ١٤٦
٩١. البقرة : ١٤٤ .
٩٢. روح المعاني : ٤١٠/١ ، ٤١١ .
٩٣. الدر المصون : ١٦٨/٢ .
٩٤. البحر المحيط : ٣٢/٢ .
٩٥. المحرر الوجيز : ٢٢٣/١ .
٩٦. الجامع لأحكام القرآن : ١٦٢/٢ .
٩٧. معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ٢٢٥/١ .
٩٨. آل عمران : ٧
٩٩. المائدة : ٣١ ، ٣٢
١٠٠. المائدة : ٢٦
١٠١. البقرة : ٢١٩ ، ٢٢٠ .
١٠٢. العنكبوت : ٤٣ .
١٠٣. يس : ٥٣ .